

دراسات

بناء الدولة اليهودية، 1897 – 1948: الأداة العسكرية*

وليد الخالدي

أولاً: تمهيد

تطابق نمو الأداة الصهيونية العسكرية منذ بدء الاستيطان، في أواخر القرن التاسع عشر، لغاية بدء القتال بعيد قرار التقسيم سنة 1947، مع مراحل نمو اليبشوف والمنظمة الصهيونية العالمية، ومع تطور ميزان القوى بين الصهيونية والشعب الفلسطيني لمصلحة الأولى.

وكان الحدث الفصل، في هذه الفترة بكاملها، انتقال السيادة على فلسطين من أيدي العثمانيين إلى أيدي بريطانيا، بينما شهد العهد الانتدابي حدثين فصلين: أولهما محلي، الثورة الفلسطينية الكبرى من سنة 1936 إلى سنة 1939 وذيولها؛ ثانيهما دولي، المحرقة النازية وذيولها، وخصوصاً في الولايات المتحدة.

ونمت الظروف الموضوعية اللازمة والكافية لإنشاء الدولة العبرية خلال هذه الفترة نمواً متدرجاً وتراكماً. وتكوّنت هذه الظروف من نسيج متشابك ومعقد ومركّب من التطورات والمتغيرات المحلية والدولية كانت حصيلتها، على الصعيد العسكري، نمواً مطرداً لقدرة الحسم في هذا المجال بلغ ذروته، في هذه الفترة، عشية إعلان الدولة وعقب قرار التقسيم بحيث غدا إعلان الدولة في 15 أيار/مايو 1948 النتيجة الطبيعية والمنطقية لكل ما سبق.

يمكننا عند دراسة نمو الأداة الصهيونية العسكرية أن نركّز حصراً على الأداة ذاتها وعلى تطور طاقتها ومؤسساتها، لكننا بذلك إنما نغفل عن العلاقة العضوية والجدلية بين نمو الأداة وخلفيته المتمثلة في التطورات والمتغيرات التي ذكرناها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى علينا تحاشي التوغل في استقصاء العلاقة بين نمو الأداة وخلفيته كي لا يأتي ذلك على حساب دراسة الأداة ذاتها. لذلك سلكنا سبيلاً وسطاً

* قُدمت هذه الدراسة في ندوة "الحركة الصهيونية وإسرائيل"، التي عقدتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية في لارنكا، قبرص، في الفترة 11 - 13/12/1998.

بحيث نتابع نمو الأداة مع الإشارة إلى أبرز أوجه الترابط بينه وبين خلفيته. في الوقت نفسه، ارتأينا أن نقسم الفترة التي نحن في صدها إلى ما اعتبرناه مراحلها السبع الرئيسية بحسب التسلسل الزمني، بحيث نتمكن من متابعة الترابط تباعاً بين نمو الأداة العسكرية وخلفيته. أمّا المراحل السبع فهي:

المرحلة الأولى: من البدايات حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914.

المرحلة الثانية: الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918).

المرحلة الثالثة: من بداية الاحتلال البريطاني حتى اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى (1917/1918 – 1936).

المرحلة الرابعة: الثورة الفلسطينية الكبرى (1936 – 1939).

المرحلة الخامسة: من انتهاء الثورة إلى انتهاء الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945).

المرحلة السادسة: من استلام حزب العمال الحكم في بريطانيا إلى قرار التقسيم (تموز/يوليو 1945 – تشرين الثاني/نوفمبر 1947).

المرحلة السابعة: من قرار التقسيم إلى قيام الدولة العبرية (تشرين الثاني/نوفمبر 1947 – 15 أيار/مايو 1948).

ثانياً: المرحلة الأولى

من البدايات حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى

كان عدد يهود العالم عشية بداية هجرتهم الاستيطانية إلى فلسطين، في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، 7.750.000 نسمة. وكانت أعلى نسبة منهم (نحو 75%) تقطن في بلاد أوروبا الشرقية، وخصوصاً في مناطق روسيا الغربية تحت حكم قيصري قاس. ولم تتعد نسبة يهود الولايات المتحدة حينذاك 3.5% من مجموع يهود العالم.⁽¹⁾

دخل فلسطين في هذه المرحلة بحافز الصهيونية نحو 46.000 يهودي، 6000 منهم في موجة الهجرة الأولى (1882 – 1903)،⁽²⁾ والباقيون في موجة الهجرة الثانية (1904 – 1914)، وجلهم من أوروبا الشرقية.⁽³⁾ في المقابل، تدفقت جموع

Arthur Ruppin, *The Jews in the Modern World* (London: MacMillan, 1934), p. 23. (1)

Encyclopedia of Zionism & Israel (New York: Herzl Press, 1971), vol. I, p. 325. (2)

Ibid., vol. II, p. 1012. (3)

من اليهود نحو الولايات المتحدة في المرحلة ذاتها هرباً من الحكم القيصري، فدخلها ما يزيد على مليوني يهودي بين سنة 1881 وسنة 1914.⁽⁴⁾

واستقر معظم المهاجرين اليهود بالمدن الفلسطينية المختلطة، ونحو ربعهم بـ 47 مستعمرة أنشئ معظمها بفضل فرد واحد هو البارون إدموند دو روتشيلد. وبفضل روتشيلد بلغت مساحة الأراضي التي أقيمت عليها هذه المستعمرات 420.000 دونم سنة 1914، شكلت 2% من مساحة فلسطين.⁽⁵⁾ وكان جلّ المستعمرات ذا ملكية خاصة، ولم يزد عدد سكان المستعمرات الجماعية والتعاونية (الكيبوتسات والموشافيم)، حتى سنة 1914، على 600 نسمة من مجموع 11.580 نسمة من سكان الريف اليهود.⁽⁶⁾ وبينما رضي هؤلاء، في معظمهم، بتشغيل اليد العاملة العربية في مزارعهم الخاصة، تعالت النقمة جرّاء ذلك في صفوف جماعات متزايدة من مهاجري موجة الهجرة الثانية لأسباب ومسوغات أيديولوجية وقومية. لكن ما جمع بين الطرفين هو نظرة استعلائية واحدة إلى العرب عكست العقيدة الصهيونية ذاتها والمناخ الأوروبي العام في عصر بلغ الاستعمار والقومية الراديكالية فيه أوجهما.⁽⁷⁾

عقد المؤتمر الصهيوني الأول على خلفية ظهور كراس هيرتسل "دولة اليهود" (*Der Judenstaat*)، وصدر عن المؤتمر "برنامج بازل" الذي عملت الحركة الصهيونية بهديه حتى سنة 1951.⁽⁸⁾ غير أن ما كان يدور في خلد هيرتسل وأقرانه لا نجده في "برنامج بازل"، ولا في الرواية التي وضعها سنة 1902 بعنوان *Alteneuland*، وإنما في طيات "مذكراته"، وخصوصاً في المسودة التي أعدها لإنشاء "شركة الأرض اليهودية - العثمانية" خلال مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد (1901 - 1902) للحصول على ما سماه Charter، أي "براءة" لاستعمار فلسطين وجوارها.⁽⁹⁾

وواضح كل الوضوح، من قراءة هذه المسودة، أن الغرض كان السيطرة التامة على

Ruppin, op. cit., p. 49. (4)

A Survey of Palestine (Jerusalem: Government Printer, 1946-1947), vol. I, p. 372. (5)

Ibid. (6)

Hans Kohn, "Zion and the Jewish National Idea," *The Menorah Journal*, vol. xlvi, nos. 1 (7) & 2 (1958).

أحلّ المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون الذي عقد في القدس سنة 1951، وهو أول مؤتمر يعقد بعد قيام الدولة، "برنامج القدس" محلّ "برنامج بازل".

(9) نُشر نص المسودة، أول مرة، كملحق في نهاية المجلد الثاني من:

Adolf Bohm, *Die Zionistische Bewegung* (Berlin: Judischer Verlag, 1935-1937).

فلسطين وجوارها (المواد VII A – IV) على أساس نقل السكان (أي الترانسفير) إلى مناطق أخرى و"مقايسة" أراضي سكان فلسطين وجوارها بأراضٍ في هذه المناطق (المادة III). ومن الواضح أيضاً أن هيرتسل كان يهدف، صراحة، إلى تأسيس جيش وبحرية يهوديين قائمين على التجنيد الإجباري لليهود حصراً (المادة III B) بغرض "ضمان حدود فلسطين وسورية ضد أي هجوم"، ومن أجل "فرض القانون والنظام (law and order) داخل البلد... والدفاع عن الولايات الآسيوية للإمبراطورية العثمانية" (المادة VII C).⁽¹⁰⁾

وعدا ما يفصح عنه هذا المشروع بشأن مدى طموحات هيرتسل، يتبين من سعي هيرتسل لاتفاق فوقي بموجب "البراءة" مع الدولة ذات السيادة في فلسطين أنه تجاهل تجاهلاً كلياً سكان البلد الأصليين. وهو في ذلك إنما يحذو حذو جميع العواصم الاستعمارية الغربية حينذاك، علماً بأن "البراءة" كانت - لقرون - من أهم أدوات الاستعمار الغربي في آسيا وأفريقيا، وكان آخر مثال لها اقتدى هيرتسل به هو البراءة التي حصل عليها سيسيل رودس سنة 1889 لاستعمار ما وراء نهر الزمبيزي.⁽¹¹⁾

ولم ينفرد هيرتسل، في هذه الفترة، بالدعوة إلى الترانسفير وإنما تبعه في ذلك الكثيرون من زملائه، نذكر منهم على سبيل المثال: ليو موتسكين ونحمان سيركين الروسيين، ويسرائيل زانغويل البريطاني.⁽¹²⁾

وتأسست خلال هذه الفترة أهم المؤسسات الصهيونية المركزية، وعلى رأسها "المنظمة" (WZO) نفسها، و"المؤتمر" (Congress) الذي أصبح هيئتها التشريعية العليا على قاعدة شعبية تمثيلية عالمية تسمح بالتعددية الحزبية العلمانية والدينية، و"الصندوق الاستعماري اليهودي" (Jewish Colonial Trust)، و"الصندوق القومي اليهودي" (Jewish National Fund/Keren Kayemet).

وكان الصندوق الاستعماري اليهودي الذي تأسس في لندن (1899) برأس مال قدره 400.000 جنيه، الهيئة المالية الرئيسية للمنظمة، بينما خصص الصندوق

(10) انظر بشأن هذه الوثيقة:

Walid Khalidi, "The Jewish-Ottoman Land Company: Herzl's Blueprint for the Colonization of Palestine," *Journal of Palestine Studies*, vol. xxii, no. 2 (Winter 1993), pp. 30-47.

Encyclopedia of Zionism & Israel, Art. "Charter," vol. I, p. 182. (11)

Chaim Simons, *International Proposals to Transfer Arabs from Palestine* (New Jersey: (12) Hoboken, 1998), pp. 3-48;

انظر أيضاً: نورالدين مصالحه، "طرد الفلسطينيين: مفهوم 'لترانسفير' في الفكر والتخطيط الصهيونيين، 1882 - 1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1992)، ص 7 - 18.

القومي اليهودي لشراء الأراضي. وتفرع من الصندوق الاستعماري عدة شركات ومصارف أقامت فروعاً لها في إستانبول وبيروت والمدن الفلسطينية. وتولى "مكتب فلسطين" (The Palestine Office) (1908)، برئاسة البيروقراطي اليهودي البروسي الأصل آرثر روبين، تنسيق عمليات شراء الأراضي كافة، ممثلاً الصندوق القومي. وانبثق من حزب "بوعالي تسيون" الاشتراكي الماركسي، الروسي الأصل والعالمى الانتشار، تنظيم محلي من أعضاء موجة الهجرة الثانية بقيادة يتسحاق بن تسفي ودافيد بن - غوريون.

وقد أدى آرثر روبين دوراً رئيسياً في التخطيط الاستيطاني المركزي. فهو الذي بلور نظرية التواصل الجغرافي أساساً لترسيخ البنية الأرضية لدولة المستقبل، وهو الذي وضع الخطوط الجيوستراتيجية لانتشار المستعمرات الموجه. وليس مصادفة أن جاء انتشار المستعمرات حتى الثلاثينات على شاكلة حرف N، بحيث يشكل الضلع الأيسر الاستيطان الساحلي بين يافا وحيفا، والضلع الأيمن الاستيطان بين بحيرة طبرية وأعالي حوض نهر الأردن، والضلع الأوسط الاستيطان عبر السهل الداخلي (مرج ابن عامر) الرابط بين الضلعين الآخرين.⁽¹³⁾ والحكمة في ذلك تكمن في أن الاستيطان الساحلي يؤمن الاتصال بالخارج عبر البحار، وأن استيطان أعالي نهر الأردن يهدف إلى السيطرة على موارد مياهه، في حين أن الاستيطان البيني لا يربط بين الضلعين الآخرين فحسب، بل يفصل أيضاً شمال فلسطين (الجليل) عن سائر البلد، كما يتحكم عند طرفه الشرقي في "البوابة" الشرقية لفلسطين عند بدء مرج ابن عامر.

لم تسمح موارد الصندوق القومي ولا موقف السلطات العثمانية لروبين بالتوسع في شراء الأراضي، فلم تزد مساحة الأراضي، التي كانت في حيازة الصندوق سنة 1914، على 16.400 دونم من مجموع 420.000 دونم في أيد يهودية.⁽¹⁴⁾ إلا أن لوائح الصندوق القومي الداخلية الحصرية شكلت القاعدة والإطار للاستيطان الذي كان روبين يخطط له.⁽¹⁵⁾

وتوقف روبين طويلاً عند معضلة الوحدة الاستيطانية المثالية لتكون بديلاً من مستعمرات روتشيلد الخاصة وملائمة لمخططة. واسترشد بنظريات فرانس أوبنهايمر

Gershon Shafir, *Land, labor and the Origins of the Israeli-Palestine Conflict* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), p. 43.

A Survey..., op. cit., vol. I, p. 376. (14)

Sir John Hope Simpson, *Palestine: Report on Immigration, Land Settlement & Development* (London: HMSO, Cmd 3686, 1930), pp. 52-56. (15)

التعاونية، إلى أن اهتدى إلى وحدة "الكيبوتس" وعاء لاستيعاب الشبيبة العمالية والطلّاعية، ولربطها بالأرض وبالمؤسسات المركزية الصهيونية، ولإقضاء اليد العاملة العربية، وللانعتاق من رعاية روتشيلد الأبوية. وتأسست أم الكيبوتسات، دغانيا، سنة 1910 لتصبح المستعمرة النموذج لحركة الكيبوتسات اللاحقة.⁽¹⁶⁾

في الوقت نفسه طوّر حزب بوعالي تسيون، بزعامة بن - غوريون، نظرياته الاشتراكية - الماركسية متخلياً عن مبدأ صراع الطبقات ترسيخاً لتوجهه القومي الصهيوني.⁽¹⁷⁾ كما تبنى نظريتي "كيبوش هأداما" (Conquest of the Soil) و"كيبوش هعفودا" (Conquest of Labor) اللتين عبّرتا تعبيراً صادقاً عن مبادئ الصندوق القومي،⁽¹⁸⁾ وجاءتا متممتين لمخططات روبين الاستيطانية ولرأس حربتها: الكيبوتس. وهكذا كان المشروع الصهيوني عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، نظرياً، مشروعاً متكاملًا ومكتملاً للاستيلاء على البلد وإخراج أهله منه إن أمكن، لا ينتظر سوى الأوضاع السياسية الملائمة والموارد اللازمة لتطبيقه.

على هذه الخلفية برزت أولى الجماعات الصهيونية المسلحة في فلسطين. كانت البداية متواضعة في شكل أفراد من الحراس "شومريم" تولوا حراسة بعض المستعمرات. وفي أيلول/سبتمبر 1907، تألفت جمعية سرية منهم لا يتعدى عدد أفرادها العشرة باسم "بار غيور"، تيمناً بمقاتل يهودي حارب الرومان في فلسطين سنة 70م، واتخذت شعاراً لها: "بالدم والنار سقطت يهودا، وبالدم والنار ستنهض".⁽¹⁹⁾ وفي سنة 1909، قررت الجمعية التخلي عن السرية وزيادة عدد أفرادها وإقرار وجوب أن تكون حراسة جميع المستعمرات في أيدي يهودية. ويعني هذا طرد الحراس العرب الذين كانت المستعمرات الخاصة قد عينتهم والخلول محلهم، ومنع اليد العاملة العربية من العمل فيها. وأطلق على المنظمة الجديدة اسم "هشومير" (الحارس)، وانضم إليها مهاجرون من موجة الهجرة الثانية من الناشطين الذين كانوا قد شاركوا في القتال ضد هجمات "البوغروم" على يد قوات الأمن والمدنيين الروس.⁽²⁰⁾ ويعلق زئيف شيف على ذلك

Derek J. Penslar, *Zionism & Technocracy* (Bloomington: Indiana University Press, 1991), (16) pp. 96-102; Shafir, op. cit., p. 184 ff.

Shabtai Teveth, *Ben-Gurion and the Palestinian Arabs: From Peace to War* (Oxford: (17) Oxford University Press, 1985), p. 9 ff.

(18) انظر المقالين بشأن هاتين النظريتين في:

Encyclopedia of Zionism & Israel, vol. I, pp. 213-214.

Ze'ev Schiff, *A History of the Israeli Army (1870-1974)* (San Francisco: Straight Arrow (19) Book, 1974), p. 2

Shafir, op. cit., p. 185. (20)

بقوله: "كانت منظمة هشومير الحلقة الرابطة بين الاستيطان الزراعي والتدريب العسكري، وبدأ نهج تکرّس لاحقاً في منظمة 'الهأغاناه في الثلاثينات، ثم في 'البلماخ في الأربعينات، ثم في منظمة الشباب الطلائعي المقاتل 'نوعر حالوتسي لوحيم، 'الناحل'.⁽²¹⁾

ثالثاً: المرحلة الثانية

الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)

شكلت نهاية هذه الحرب، كما ذكرنا، الحدث الفصل في هذه الفترة بكاملها من حيث زوال العهد العثماني وانتقال البلد إلى أيدي بريطانيا التي أصبحت، بموجب وعد بلفور، الحامية والحاضنة للمشروع الصهيوني. فحصلت الصهيونية بذلك على "البراءة"، التي طالما حلم هيرتسل بها، من فوق رأس الشعب الفلسطيني ومن أكبر دولة استعمارية حينذاك في العالم. وانقلبت، بين عشية وضحاها، موازين القوى في فلسطين لمصلحة الصهيونية، وفُتحت الأبواب على مصاريعها لتحقيق طموحاتها فيها. وكان وعد بلفور نفسه شاهداً بليغاً على حيوية الدبلوماسية الصهيونية العالمية وقدرتها على التأثير في صانعي القرار في كل من لندن وواشنطن، إذ كان هذا الوعد حصيلة التنسيق المحكم من وراء الكواليس بين حاييم وايزمن في بريطانيا وبين الزعيم الأميركي الصهيوني لويس براندايس المقرّب من الرئيس الأميركي وودرو ولسون.

وانتبه بعض الزعماء الصهيونيين، حتى قبل إصدار وعد بلفور، لأهمية استغلال فترة الحرب من أجل تجنيد يهود العالم في وحدات يهودية تقاتل في صفوف أعداء الدولة العثمانية كي تشارك في احتلال فلسطين، وكي تكون نواة جيش يهودي يربط فيها بعد انتزاعها من يد العثمانيين. وكان أهم الداعين إلى تأليف هذا الجيش جوزف ترومبلدور وفلاديمير جابوتنسكي الروسيين.

كان ترومبلدور من أوائل اليهود الذين حصلوا على رتبة ضابط في الجيش الروسي، وحارب على الجبهة الروسية – اليابانية في حرب 1905، ثم استقر بكيوتس دغانيا سنة 1912 وانخرط في صفوف "هشومير". أمّا جابوتنسكي، فكان صحافياً اشترك في الدفاع عن الأحياء اليهودية في أوديسا ضد هجمات "البوغروم" بعيد سنة 1903، وعمل داعية صهيونياً في إستانبول عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

Schiff, op. cit., p. 4. (21)

التقى ترومبلدور وجابوتنسكي في مصر بعيد اندلاع الحرب، لكن مساعيها لإقناع السلطات البريطانية بتأليف وحدات يهودية مقاتلة لم تؤد، في بادئ الأمر، إلا إلى تأليف كتيبة حمّالة على البغال (Zion Mule Corps) خدمت على جبهة غاليبولي سنة 1916. وثابر الاثنان على السعي لتأليف وحدات مقاتلة، فنجحا في ذلك وخصوصاً بعد دخول الولايات المتحدة الحرب. وتم تأليف ثلاث كتائب عديدها 6400 جندي، سميت مجتمعة "الفيلق اليهودي" (The Jewish Legion). وجُندت إحدى الكتائب من يهود أميركا، والثانية من يهود بريطانيا، أما الثالثة والتي ضمت في صفوفها دافيد بن - غوريون فقد تألفت من يهود نفتهم السلطات العثمانية من فلسطين إلى مصر لكونهم من الرعايا الروس. وانضم الفيلق اليهودي إلى جيوش الحلفاء، بقيادة الجنرال أَللنبي، التي غزت فلسطين من مصر. وبقي هذا الفيلق بإمرة القيادة البريطانية إلى أن سرح سنة 1921.⁽²²⁾ ويصف زئيف شيف هذا الفيلق بأنه "كان أكبر تشكيل يهودي حربي في العصر الحديث إلى ذلك الحين، وقدم محاربوه القداماء خبرتهم العسكرية إلى المجتمع اليهودي في فلسطين."⁽²³⁾

في هذه الأثناء، انتقل ترومبلدور إلى روسيا بعد نجاح الثورة الروسية وحصل على الموافقة المبدئية من حكومة كيرنسكي الانتقالية على تأليف جيش يهودي يتراوح عدد أفراده ما بين 70.000 و100.000 بهدف اختراق الجبهة التركية عبر جبال القفقاس والوصول إلى فلسطين عن هذا السبيل. إلا إن المشروع سقط بسقوط حكومة كيرنسكي.⁽²⁴⁾

بعد فشل هذا المشروع وجّه ترومبلدور نشاطه في روسيا لتنظيم حركة "هيهالوتس"، أي الطلائعيين.⁽²⁵⁾ وكانت الهجرة إلى فلسطين، حتى ذلك الوقت، هجرة أفراد، في معظمها، بينما قصدت حركة "هيهالوتس"، التي نمت فروع كثيرة لها في أنحاء روسيا، إلى تدريب جماعي مسبق للشبان الراغبين في الهجرة. وفي ربيع سنة 1918، انضم ترومبلدور إلى حركة "هيهالوتس"، وتقرر أن تفتح عضويتها أمام جميع الشبان اليهود فوق الثامنة عشرة من العمر. وشمل تدريبهم تعلم اللغة العبرية والمجالين الزراعي والعسكري. ومع أن الحركة تعثرت في روسيا في العشرينات، إلا

Encyclopedia of Zionism & Israel, vol. I, p. 624. (22)

Schiff, op. cit., p. 7. (23)

Joseph B. Schechtman, *The Vladimir Jabotinsky Story: Rebel & Statesman* (New York: T. (24)

Yoseloff, 1956), p. 240.

Joseph B. Schechtman, *The Vladimir Jabotinsky Story: Fighter & Prophet* (New York: T. (25)

Yoseloff, 1961), p. 410.

إنها انتشرت في بلاد أوروبا الشرقية والوسطى كما في الولايات المتحدة، وغدت المخزن الرئيسي للطاقة البشرية المدربة للاستيطان الزراعي العمالي.⁽²⁶⁾

رابعاً: المرحلة الثالثة من بداية الاحتلال البريطاني حتى اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى (1917/1918 – 1936)

نما الوطن القومي اليهودي نمواً مطرداً في كنف الانتداب وتشريعاته، وبحماية الحراب البريطانية. فازداد عدد اليهود في البلد عن طريق الهجرة من 57.000 نسمة (1919) إلى 120.559 نسمة (1925)، وإلى 164.950 نسمة (1930)، ثم إلى 355.157 نسمة (1935). وارتفعت نسبتهم من 9.7٪ سنة 1919 إلى 27.15٪ سنة 1935.⁽²⁷⁾

وفي الوقت نفسه، ازدادت مساحة الأراضي التي في حيازة اليهود من 650.000 دونم (1919) إلى 1.392.600 دونم (1936). وبالتالي ازدادت نسبة هذه الأراضي إلى مجمل مساحة البلد من 2.04٪ (1919) إلى 5.15٪ (1936).⁽²⁸⁾ أما المستعمرات فازداد عددها من 47 مستعمرة سنة 1914 إلى 172 مستعمرة سنة 1936.⁽²⁹⁾ كذلك ارتفعت مساحة الأراضي في ملكية الصندوق القومي من 16.400 دونم (1914) إلى 369.800 دونم (1936).⁽³⁰⁾ كما ارتفع عدد سكان المستعمرات الجماعية والتعاونية (الكيبوتسات والموشافيم) من 580 نسمة (1914) إلى 27.580 نسمة (1936).⁽³¹⁾ وكان هذا النمو المستفحل السبب المباشر في انفجار الثورة الفلسطينية الكبرى سنة 1936.

وفي هذه الأثناء، استمر الحديث عن الترانسفير في أوساط القيادة الصهيونية العليا، فدعا إليه كل من البارون إدموند دو روتشيلد في محادثات مع جابوتنسكي سنة 1929، ومناحم أوسشكين، رئيس الصندوق القومي، في محاضرة علنية له في القدس سنة 1930، وحاييم وايزمن في محادثات رسمية في وزارة الخارجية البريطانية سنة

Encyclopedia of Zionism & Israel, Art. "Hehalutz," vol. I, p. 484. (26)

A Survey..., op. cit., vol. I, p. 141. (27)

Ibid. (28)

Ibid., p. 372. (29)

Ibid., p. 376. (30)

Ibid., p. 372. (31)

1931، وفيكتور جاكوبسون، العضو السابق في اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية، سنة 1933، وإدوارد نورمان، العضو الأميركي في الوكالة اليهودية الموسعة، سنة 1934.⁽³²⁾

وفي 30 حزيران/يونيو 1932، أوضح حاييم أرلوزوروف، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية، في رسالة إلى حاييم وايزمن تقويمه لـ "المرحلة" (stage) التي وصل إليها الوطن القومي فقال: "لم يعد لدى العرب القوة لتحطيمنا، لكنهم لا يزالون يعتقدون أن لديهم القوة لتأسيس الدولة العربية في فلسطين من دون أن يأخذوا في الاعتبار المطالب السياسية اليهودية، بينما لدى اليهود القوة الكافية للحفاظ على موقعهم من دون أن يكون لديهم القوة الكافية لتأمين النمو المطرد لليشوف... وستتلو هذه المرحلة مرحلة ثانية يحول فيها توزيع القوى بين الطرفين دون أي إمكان للعرب لإنشاء دولتهم العربية، ويتلو ذلك مرحلة ثالثة لن يتمكن العرب فيها من منعنا من النمو المطرد عن طريق الهجرة ونشاطنا الاقتصادي."⁽³³⁾

ويخبرنا شبتاي طيفت (Teveth)، كبير الخبراء الإسرائيليين بسيرة بن - غوريون، بأن هذا الأخير وصل إلى قناعة ثابتة في أوائل سنة 1936، أي قبل اندلاع الثورة الفلسطينية، بأن لا أمل بـ "السلام" مع الفلسطينيين ما داموا يرفضون قيام أكثرية يهودية في البلد، ولا يقبلون هجرة يهودية غير مقيدة إليه، وبأن لا بد من أن تكون العلاقة المستقبلية بهم علاقة عسكرية لا سياسية. ويضيف طيفت أن هذا الاستنتاج لم يكن مصدر غم أو كدر لبن - غوريون، وإنما العكس. فقد كان وصل، في الوقت نفسه، إلى قناعة ثانية فحواها أن الحركة الصهيونية اجتازت مرحلة الخطر في ميزان القوى مع الفلسطينيين بسبب تدفق الهجرة اليهودية على البلد في السنوات الخمس السابقة (1930 - 1935). ويؤكد طيفت أنه لهذا السبب لم يعد بن - غوريون مهتماً بأي اتصالات بالفلسطينيين التي كان بدأها قبل سنة 1936، وأنه لم يسع لمقابلة أي فلسطيني بعد تلك السنة.⁽³⁴⁾

على هذه الخلفية تم تكوين الأداة العسكرية الصهيونية عندما حلت "الهأغاناه"، سنة 1920، محل منظمة "هشومير" كمنظمة عسكرية سرية بإشراف "الهستدروت" التي

Simons, op. cit., pp. 17-87; (32)

انظر أيضاً: مصالحه، مصدر سبق ذكره.

Chaim Arlosoroff, "Reflections on Zionist Policy," *Jewish Frontier* (October 1948), pp. 7-(33)

11.

Teveth, op. cit., pp. 153, 155, 166-168, 192-193. (34)

تأسست في السنة ذاتها وضمت كل الأحزاب العمالية في البلد، وعلى رأسها حزب "أحدوت هعفودا" بزعامة بن - غوريون نفسه، وحزب "هبوعيل هتسعير" بزعامة أرلوزوروف.

لم يمر تأسيس الهاغاناه من دون أزمة داخلية. ذلك بأن جابوتنسكي، على الرغم من تسريح السلطة البريطانية للفيلق اليهودي سنة 1921، كما ذكرنا، ظل مؤمناً بعدم جدوى أي تنظيم عسكري سري لصعوبة تدريبه وتسليحه، وثابر على مطالبته بجيش يهودي علني حتى لو كان بإمرة القيادة البريطانية. إلا إن بن - غوريون وزملاءه أصروا على أن تكون سرية الهاغاناه بقيادة يهودية بحتة تجنباً لتقلبات السياسة البريطانية، وكي تبقى الأداة العسكرية الصهيونية في تصرف المشروع الصهيوني كلياً.⁽³⁵⁾

لم يقتصر الخلاف بين جابوتنسكي والقيادة الصهيونية، المتمثلة في شخصي وايزمن وبن - غوريون، على موضوع الهاغاناه. فقد اتخذ جابوتنسكي موقفاً معارضاً متزايداً من مجمل توجه القيادة الصهيونية، ومن مبادئها لتفسير الانتداب بموجب الكتاب الأبيض لسنة 1922، وخصوصاً من ناحية عدم الجهر بالدولة كهدف وإخراج شرق الأردن من نطاق تطبيق وعد بلفور. وكانت له اعتراضات أيديولوجية على "اشتراكية" الأحزاب العمالية، وعلى دور "الهستدروت" في حياة اليبشوف العامة، فكانت استقالته من اللجنة التنفيذية الصهيونية سنة 1923، وإنشائه الحركة التصحيحية (Revisionists) سنة 1925، وانسلاخه عن المنظمة الصهيونية العالمية وتأسيسه للمنظمة الصهيونية الجديدة (New Zionist Organization) سنة 1935.⁽³⁶⁾

وكان ترومبلدور قد عاد إلى فلسطين وقتل سنة 1920 في هجوم عربي على مستعمرة تل - حاي النائبة في الجليل الشمالي، وأصبح مقتله أسطورة من أهم أساطير البطولة والتضحية.⁽³⁷⁾ فأسس جابوتنسكي، سنة 1923، منظمة شبيهة تصحيحية سماها بریت ترومبلدور (بيتار). وقامت المنظمة على مبادئ الجهر بالدولة كهدف، وأحادية (Monism) المشروع الصهيوني من دون أي "تميعات" اشتراكية أو ليبرالية، والتدريب والاستعداد العسكريين، والانضباط الصارم، وغدت المنافسة اليمينية الكبرى لحركة "هيهالوتس" اليسارية في استقطاب الشباب اليهود في

Schechtman, *Rebel...*, op. cit., p. 322 ff. (35)

Encyclopedia of Zionism & Israel, Art. "Jabotinsky," vol. I, p. 597. (36)

Schechtman, *Rebel...*, op. cit., p. 313. (37)

(38). العالم.

وفي سنة 1931، وبتأثير من الحركة التصحيحية، انشقت صفوف "الهاغاناه" وتأسست منظمة "الهاغاناه ب" احتجاجاً على سيطرة "الهستدروت" على الهاغاناه. إلا أن المنشقين عادوا سنة 1937، في معظمهم، إلى المؤسسة الأم. أما الباقيون فاتخذوا اسم المنظمة العسكرية القومية "إرغون تسفائي لئومي" ("إيتسل")، وأصبحوا الأداة العسكرية للحركة التصحيحية التي مدتها بالعناصر والأنصار عبر "بيتار".⁽³⁹⁾

خامساً: المرحلة الرابعة

الثورة الفلسطينية الكبرى (1936 – 1939)

استمر نمو الوطن القومي خلال هذه المرحلة، فازداد عدد اليهود من 384.078 نسمة (1936) إلى 445.457 نسمة (1939)، وارتفعت نسبتهم إلى مجموع عدد السكان من 28.10٪ (1936) إلى 29.66٪ (1939).⁽⁴⁰⁾ كما ازداد عدد المستعمرات من 172 مستعمرة (1936) إلى 224 مستعمرة (1939).⁽⁴¹⁾

وشهدت هذه المرحلة صدور تقرير بيل (تموز/ يوليو 1937) وتوصياته الشهيرة (تقسيم، ودولة يهودية، وضم المنطقة العربية إلى شرق الأردن، وترانسفير / compulsory transfer / للعرب من الدولة اليهودية المقترحة). كذلك شهدت هذه المرحلة تصعيد البحث في القيادة الصهيونية عن الترانسفير في ضوء توصيات بيل.⁽⁴²⁾

وخطت الهاغاناه، خلال هذه السنوات الثلاث، خطوات واسعة في اتجاه تحولها إلى جيش قادر على الحسم في أي مواجهة مقبلة مع العرب. وكانت هذه المكاسب نتيجة عاملين: أولاً، قرار الجيش البريطاني بالاعتماد على القوات اليهودية وجعلها شريكة له في قمعه للثورة العربية؛ ثانياً، قدرة القيادتين السياسية والعسكرية الصهيونيتين على الإفادة من الظروف المتاحة محلياً ودولياً.

ونستطيع تتبع تطور الهاغاناه في المجالات التالية، مع شرح كل منها باختصار

شديد:

Encyclopedia of Zionism & Israel, Art. "Brit Trumpeldor," vol. I, p. 164. (38)

Schechtman, *Fighter...*, op. cit., pp. 442-447. (39)

A Survey..., op. cit., vol. I, p. 141. (40)

(41) إن عدد المستعمرات لسنة 1939 تقديري، ذلك بأن المصدر السابق (الحاشية 40) لا يذكر عددها لهذه السنة، بينما يذكر

أن العدد كان 231 مستعمرة سنة 1941.

Simons, op. cit., pp. 123-185; (42)

انظر أيضاً: مصالحه، مصدر سبق ذكره.

(1) العدد

ضمت الهاغاناه، سنة 1937، 21.000 عضو (بينهم 4000 من الإناث) موزعين على 270 نقطة استيطان.⁽⁴³⁾ وبلغ عديد الهاغاناه 24.000 من الذكور، في ربيع سنة 1939.⁽⁴⁴⁾ لكن، إضافة إلى الهاغاناه جند الجيش البريطاني بالتعاون مع الوكالة اليهودية جيشاً يهودياً رديفاً كان عديده 22.000 جندي سنة 1939،⁽⁴⁵⁾ أي (وهذه هي المفارقة) أن أمنية جابوتنسكي تحققت على يد القيادة العمالية. وجرى تنظيم الهاغاناه "الرسمية" هذه على غرار الجيش الإقليمي (Territorial Army) في بريطانيا، وكان أكبر تشكيل فيها ما سمي تمويهاً "شرطة المستعمرات اليهودية" (Jewish Settlement Police).⁽⁴⁶⁾

(2) السلاح

كان لدى الهاغاناه في صيف سنة 1937: 4500 بندقية و10.000 مسدس و230 مدفع رشاش.⁽⁴⁷⁾ ووصل إلى الهاغاناه، خلال هذه المرحلة، من مصدر واحد فقط بين عدة مصادر، بولندا، وبمعرفة وزارة الحرب البولندية: 2750 بندقية؛ 225 رشاشاً؛ 10.000 قنبلة يدوية؛ مليوناً طلقة وآلات لصنع الطلقات.⁽⁴⁸⁾ وقدّم الجيش البريطاني إلى "شرطة المستعمرات اليهودية"، وإلى سائر وحدات الجيش اليهودي الرديف: 7860 بندقية، و48 مدفع رشاش من طراز لويس (Lewis).⁽⁴⁹⁾

(3) التدريب

جرى تدريب "شرطة المستعمرات اليهودية" على يد الجيش البريطاني ووفقاً لأساليبه. وعقدت دورات تدريبية مكثفة للقادة والرقباء استغلتها الهاغاناه "غير

(43) يهودا سلوتسكي، "سيفر تولدوت ههاغاناه" ("تاريخ الهاغاناه")، المجلد الثاني: "من الدفاع إلى النضال" (تل أبيب، 1964). وقد ترجمه أحمد خليفة: "الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936 - 1939: الرواية الرسمية الإسرائيلية" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1989). (ستتم الإشارة إلى هذا المصدر وإلى ترجمته، لاحقاً، كما يلي: سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال")، ص 733/119. ويشير الرقم الأول إلى صفحة الترجمة العربية، بينما يشير الرقم الثاني إلى صفحة الأصل العبري).

(44) المصدر نفسه، ص 982/418.

(45) المصدر نفسه، ص 897/314.

(46) المصدر نفسه، ص 895/311.

(47) المصدر نفسه، ص 733/119.

(48) المصدر نفسه، ص 973/405.

(49) المصدر نفسه، ص 897/314.

الشرعية" لتدريب أعضائها وقادتها.⁽⁵⁰⁾ وألفت وحدات كوماندو جرى تدريبها تدريباً عنيفاً على يد الضابط البريطاني أورد وينغيت (Wingate) وسُميت "الوحدات الليلية الخاصة" (Special Night Squads).⁽⁵¹⁾ كذلك جرى تدريب الآلاف من الطلاب (هيخالوتس) البولنديين، بالتعاون بين الهاغاناه والجيش البولندي.⁽⁵²⁾

(4) التنظيم القطري

قام تنظيم الهاغاناه القطري سنة 1936 على 20 "كتلة" من المستعمرات، إضافة إلى المدن الثلاث الكبرى. وكانت كل "كتلة" تضم عدداً متفاوتاً من "النقاط" والمستعمرات، ويرئسها قائد يعينه وينفق عليه سكان الكتلة. وكانت كل مستعمرة تتولى شراء أسلحتها وحفظها.⁽⁵³⁾

وأعيد تنظيم هذا الإطار بحيث توزعت الكتل العشرون والمدن الثلاث على سبعة "ألوية" (Regions)، لكل لواء قائد، الأمر الذي سهّل عملية الاتصال بالقيادة. وأصبح قادة الكتل والألوية يتلقون روايتهم من القيادة، وشرعت القيادة في توزيع الأسلحة وبيعها للمستعمرات.⁽⁵⁴⁾

(5) القيادة القطرية

لغاية أزمة "الهاغاناه ب" كانت القيادة محصورة في شخص واحد يمثل "الهستدروت". لكن عقب الأزمة أصبحت القيادة قائمة على أساس التساوي العددي بين ممثلي الهستدروت وممثلي اليمين غير التصحيحي، على قاعدة 3:3؛ وكان هذا الحل موفقاً سياسياً لا عملاً. ⁽⁵⁵⁾ لذلك عيّن في آخر هذه المرحلة رئيس للقيادة القطرية كي يكون مرجعاً عسكرياً لقادة الكتل والألوية،⁽⁵⁶⁾ وأخرجت أعمال فنية تخطيط، وتحصينات، وتدريب، واتصالات... إلخ) من نطاق تأثيرات التساوي العددي كي تشكل النواة لهيئة أركان حرب بعيدة عن الاعتبارات السياسية.⁽⁵⁷⁾

(50) المصدر نفسه، ص 893/308.

(51) المصدر نفسه، ص 911/331؛ انظر أيضاً:

Yigal Allon, *The Making of Israel's Army* (New York: Universe Books, 1970), pp. 8-11.

(52) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 1001/442.

(53) المصدر نفسه، ص 757/147.

(54) المصدر نفسه.

David Ben-Gurion, *Jewish Observer*, September 20, 1963, p. 12. (55)

(56) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 1018/461.

(57) المصدر نفسه، ص 983/419.

(6) الصناعة العسكرية

بدأت الصناعة العسكرية، سنة 1934، بصناعة الألغام والقنابل اليدوية. وفي سنة 1935، كانت تنتج 350 قنبلة يدوية يومياً.⁽⁵⁸⁾ وبعد الحصول على آلات من أوروبا شُرع، سنة 1939، في إنتاج 15.000 طلقة رصاص يومياً.⁽⁵⁹⁾ وفي السنة نفسها، طُورت صناعة مدفع الهاون عيار 3 بوصات بعدما لاحظت الهاغاناه فعاليتها بيد الجيش البريطاني؛ فتم في تلك السنة إنتاج 48 مدفعاً من هذا العيار مع كل مستلزماتها، بالإضافة إلى 5000 قذيفة.⁽⁶⁰⁾

(7) العقيدة القتالية

ثمة إجماع لدى المؤرخين العسكريين والمدنيين على ما تركه الضابط البريطاني أورد وينغيت من أثر في نفوس قادة الهاغاناه وأفرادها. وكانت عقيدته التي طبقها، فيما بعد، على نطاق واسع في بورما خلال الحرب العالمية الثانية تستند إلى المبادأة، والمباغطة، والتحرك السريع مع قطع المسافات الطويلة، والقتال الليلي، والتسلل إلى مؤخر العدو، والتدريب العنيف. وتأثر بهذه العقيدة جمهرة قادة الهاغاناه. وكان كل من موشيه دايان، ويتسحاق رابين، ويغال ألون، من تلامذة وينغيت.⁽⁶¹⁾

(8) الخبرة العملائية والقتالية

اكتسبت الهاغاناه، عن طريق "شرطة المستعمرات اليهودية" و"الوحدات الليلية الخاصة"، خبرة عملائية وقتالية واسعة نتيجة الاشتراك مع الجيش البريطاني في أعمال الدوريات والكمائن ضد الثوار الفلسطينيين، والتسلل إلى أعماق الريف الفلسطيني.⁽⁶²⁾ وكلف الجيش البريطاني شركة "سوليل بونيه"، التابعة للهستدروت، بناء سياج على امتداد حدود فلسطين الشمالية (180 كم)، فقامت بذلك بحماية الجيش البريطاني والهاغاناه معاً.⁽⁶³⁾ وتولت "الوحدات الليلية الخاصة" حماية أنبوب نפט العراق العابر وسط مرج ابن عامر، بالاشتراك مع الجيش البريطاني أيضاً.⁽⁶⁴⁾

Ben-Gurion, op. cit. (58)

(59) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 981/415.

(60) المصدر نفسه، ص 980/414.

(61) Allon, op. cit., pp. 10-11; Schiff, op. cit., pp. 17-20.

(62) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 398/314.

(63) المصدر نفسه، ص 904/322.

(64) المصدر نفسه، ص 915/336.

وتأسس ضمن "شرطة المستعمرات اليهودية" وحدة خاصة سميت "الحرس السيّار" قوامها 60 دورية متنقلة بمصفحات، وأصبحت القوة الضاربة لـ "شرطة المستعمرات" والنموذج للبلماخ لاحقاً.⁽⁶⁵⁾

(9) الدور الاستيطاني للهاغاناه

كان الاستيطان، أساساً، عملية "احتلال" من حيث غائية المشروع الصهيوني هدف الدولة وتثبيت السيادة على الأرض المستوطنة)، وجرى في العهد العثماني بأسلوب مدني متدرج وعلى الرغم من التشريعات القائمة نظراً إلى ضعف السلطات العثمانية وتدخل قناصل الدول الغربية. وظل مدنياً متدرجاً بعد الاحتلال البريطاني، لكن بحماية التشريعات الانتدابية والجيش البريطاني عن بعد، وبقي حتى صدور تقرير بيل (1937) ضمن حدود المخطط N الذي سبق ذكره.

وعقب صدور تقرير بيل واحتدام الثورة الفلسطينية من جديد ضد مشروع التقسيم، اتخذ الاستيطان أسلوباً عسكرياً مباشراً بالتنسيق بين "شرطة المستعمرات اليهودية" والوحدات الليلية الخاصة و"الحرس السيّار" والهاغاناه من جهة، وبين الجيش البريطاني من جهة أخرى.⁽⁶⁶⁾ وتم إنشاء 52 مستعمرة معظمها بهذا الأسلوب، عرفت بمستعمرات "السور والبرج" لأنها قامت حول نواة حصينة في ليلة واحدة. وامتدت هذه المستعمرات خارج المخطط N، وخصوصاً في اتجاه الحدود اللبنانية الساحلية والسهل الجنوبي بيسان وأبواب النقب لتدخل هذه المناطق ضمن الدولة اليهودية المرتقبة.⁽⁶⁷⁾

(10) التحصينات

أنشئ حول كل مستعمرة نظام تحصينات ملائم لقوة نيران العرب وتكتيكاتهم، مؤلف من أسلاك شائكة، ومواقع من الأسمنت المسلح مع كوات لإطلاق النار، وأبراج، ومصابيح كاشفة، وخنادق للوصول إلى المواقع، وحقول ألغام.⁽⁶⁸⁾

(65) المصدر نفسه، ص 902/320.

(66) المصدر نفسه، ص 897/313.

(67) المصدر نفسه، ص 851/259.

(68) يهودا سلوتسكي، "سيفر تولدوت ههاغاناه" ("تاريخ الهاغاناه")، المجلد الثالث: "من النضال إلى الحرب" (تل أبيب، 1972). وقد ترجمه أحمد خليفة: "حرب فلسطين 1947 - 1948: الرواية الإسرائيلية الرسمية" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984). (ستتم الإشارة إلى هذا المصدر وإلى ترجمته، لاحقاً، كما يلي: سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب")، ص 1410/271. ويشير الرقم الأول إلى صفحة الترجمة العربية، بينما يشير الرقم الثاني إلى صفحة الأصل العبري.

(11) التعبئة

في هذه المرحلة فرضت الهاغاناه على طلاب جميع المدارس الثانوية ذكوراً وإناثاً، ما بين الـ 14 و17 عاماً، برنامج تدريب تمهيدي عسكري (pre-military).⁽⁶⁹⁾ وأصدرت، سنة 1934، تعليمات تحدد مهمات الأعضاء الإناث، وأجرت دورات تدريبية لهن على تلك المهمات. كما جرى تدريب الأطباء على المسؤوليات العسكرية، والاستعانة بالعلماء في الصناعة العسكرية.⁽⁷⁰⁾

(12) دور الهاغاناه في تأسيس الدولة

تعمق الانقسام داخل الحركة الصهيونية بشأن موضوع التقسيم بعد صدور تقرير بيل. وكان التصحيحيون أشد المعارضين للتقسيم، بينما أيده كل من وايزمن وبن - غوريون. انطلق بن - غوريون في تأييده من اعتبارين أساسيين: أولهما توصية الترانسفير التي صدرت عن لجنة بيل، والتي حلت بالنسبة إلى بن - غوريون "معضلة" السكان العرب في الدولة العبرية المقترحة؛ ثانيهما، اعتبار بن - غوريون أن دولة عبرية على جزء من فلسطين ستكون قاعدة صالحة لاحتلال فلسطين بكاملها.⁽⁷¹⁾ وفعلاً، فإن أليميلخ أفنير (Avner)، قائد الهاغاناه في تل أبيب، وضع في هذه المرحلة (1937) خطة في غاية التفصيل لقيام الهاغاناه باحتلال كامل فلسطين على ثلاث مراحل، محدداً القوات اللازمة نوعاً وعداداً للدفاع والهجوم عند كل مرحلة. وناقش قادة الهاغاناه هذه الخطة نقاشاً مستفيضاً.⁽⁷²⁾

مُنّي الشعب الفلسطيني في مجابهته الجيش البريطاني بخسائر جسيمة في الأرواح والأموال والأرزاق والاقتصاد العام، وفي بنيته السياسية والاقتصادية والمقاومة، وذلك جرّاء القتل والإعدام والجرح والاعتقال والنفي والتشريد والهدم والغرامة ونزع السلاح الشامل. كما تعمقت الخلافات الداخلية تحت ضغط الأحداث ونتيجة أخطاء القيادة الفلسطينية، فإذا أضفنا هذه السلبيات إلى مكاسب الطرف الآخر تبين لنا

Netanel Lorch, *The Edge of the Sword* (New York: Putnam, 1961), p. 46. (69)

(70) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 413/979، 428/990؛ سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 47/1225.

(71) Teveth, op. cit., pp. 101, 180-182, 187-188.

(72) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 136/749؛ انظر أيضاً: Schiff, op. cit., p. 15.

المقدار الذي ماله ميزان القوى لمصلحة الصهيونية خلال هذه المرحلة.⁽⁷³⁾ من جهة أخرى، تخلت بريطانيا عن التقسيم وأصدرت الكتاب الأبيض (1939) متأثرة بشدة المقاومة الفلسطينية، وبتوتر الأوضاع العالمية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية.

سادساً: المرحلة الخامسة من انتهاء الثورة إلى انتهاء الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)

استمر نمو الوطن القومي خلال هذه المرحلة، فازداد عدد اليهود من 445.457 نسمة (1939) إلى 579.227 نسمة، أي من نسبة 29.66% إلى نسبة 31.56% من مجموع عدد السكان.⁽⁷⁴⁾ كما ازدادت مساحة الأراضي التي في حيازة اليهود من 1.533.400 دونم (1939) إلى 1.731.300 دونم (1944)، أي من نسبة 5.67% إلى نسبة 6.41% من مجموع مساحة البلد.⁽⁷⁵⁾ كذلك ازداد عدد المستعمرات من 224 مستعمرة (1939) إلى 259 مستعمرة (1944).⁽⁷⁶⁾

كان الكتاب الأبيض لسنة 1939 بداية الخلاف بين الصهيونية وبريطانيا. وانتقل مركز الثقل الصهيوني إلى الولايات المتحدة حيث أعلنت الجالية اليهودية الأميركية في "برنامج بلتيمور"، سنة 1942 (وقبل انتشار أخبار الهولوكوست)، وبطلب من بن - غوريون، دعمها لإنشاء الدولة العبرية على كامل التراب الفلسطيني. واتّبع بن - غوريون سياسة تقوم على محاربة الكتاب الأبيض من جهة، وعلى انخراط اليبشوف، على نطاق واسع، في الجيش البريطاني خلال الحرب استعداداً لفترة ما بعد الحرب من جهة أخرى.

(73) يقول محمد عزة دروزة، شيخ المؤرخين الفلسطينيين، عن خسائر الفلسطينيين على يد الجيش البريطاني: "بلغ عدد المعتقلين خمسين ألفاً وعدد الشهداء سبعة آلاف وعدد الجرحى عشرين ألفاً وعدد البيوت المنسوفة ألفين". انظر: "مذكرات محمد عزة دروزة" (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، ج 5، ص 550. وبلغ عدد الأسلحة المصادرة من الفلسطينيين خلال الفترة 1936 – 1940، بحسب المصادر الرسمية البريطانية: 6371 بندقية و3220 مسدساً و1812 قنبلة و425 بندقية صيد. انظر:

A Survey..., op. cit., vol. II, p. 594.

Supplement to Survey of Palestine (Jerusalem, 1946-1947), p. 10. (74)

(75) يقدر آخر إحصاء للحكومة البريطانية مساحة الأراضي في حيازة اليهود، في أواخر سنة 1944، بـ 1.731.300 دونم. انظر:

A Survey..., op. cit., vol. I, p. 372.

(76) يقدر آخر إحصاء للحكومة البريطانية عدد المستعمرات، في أواخر سنة 1944، بـ 259 مستعمرة. انظر: Ibid.

مات جابوتنسكي سنة 1940، وكانت منظمة الإرعون قد دشنت استعمال الألغام الكهربائية الموقوتة في الشرق الأوسط في الأسواق الفلسطينية المدنية (1938 - 1939).⁽⁷⁷⁾ ثم أعلنت تأييدها لبريطانيا ضد هتلر والتزامها هدنة في البلد استمرت حتى سنة 1944، عندما تولى قيادتها مناحم بيغن. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1939، انسحبت عن الإرعون مجموعة بقيادة أبراهام شتيرن (قتله البوليس البريطاني سنة 1942)، عرفت باسم "لوحمي حيروت يسرائيل" ("المقاتلون من أجل حرية إسرائيل" - "ليحي" باختصار)، اعتبرت بريطانيا خطراً على اليبشوف أدهى من خطر هتلر، ودعت إلى التعاون مع دول المحور وإنشاء الدولة العبرية من النيل إلى الفرات. وكان يتسحاق شمير أحد كبار قادتها بعد مقتل شتيرن. وأحيا ونستون تشرشل مشروع التقسيم خلال الحرب على الرغم من معارضة وزير خارجيته أنطوني إيدن لذلك. لكنه عاد فجمده سنة 1944 في إثر مقتل صديقه الحميم، الوزير المقيم بالقاهرة اللورد موين، على أيدي أفراد من "ليحي".⁽⁷⁸⁾ وبتأثير من أوساط صهيونية تبني حزب العمال البريطاني، سنة 1944، مبدأ الترانسفير وعلقت القيادة الصهيونية عليه كبار الآمال عندما تولى الحكم سنة 1945 بعد هزيمة تشرشل في الانتخابات.⁽⁷⁹⁾ وخلف هاري ترومان فرانكلين روزفلت سنة 1945، وأظهر ميلاً شديداً نحو الصهيونية. وكان للهولوكوست أثرها في كل من حزب العمال البريطاني وترومان، إضافة إلى الحسابات الانتخابية المحضة.⁽⁸⁰⁾ واقتربت الحرب من فلسطين من الشمال (إدارة فيشي Vichy) في لبنان وسورية، ومن الجنوب عندما بلغت جيوش المحور حدود مصر، لكنها عادت فبعدت عنها عقب معركة العلمين سنة 1942.

خطت الهاغاناه في هذه المرحلة خطوات ضخمة في مجال تطورها كأداة عسكرية:

(1) التطوع في الجيش البريطاني

(77) انظر تفصيلات ذلك في: وليد الخالدي، "دير ياسين: الجمعة، 9/4/1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1999)، ص 131.

(78) انظر تفصيلات ذلك في: وليد الخالدي، "خمسون عاماً على تقسيم فلسطين (1947 - 1997)" (بيروت: دار النهار للنشر، 1998)، ص 27 - 32.

(79) انظر: Simons, op. cit., pp. 185-211.

انظر أيضاً: مصالحه، مصدر سبق ذكره.

(80) خلف ترومان روزفلت بعد وفاة الأخير في نيسان/أبريل 1945، وكان ترومان نائباً له. وتشاء الصدفة أن تقع أول انتخابات رئاسية يواجهها ترومان في أواخر سنة 1948 إياها!

بلغ عدد اليهود في فلسطين الذين تطوعوا في الجيش البريطاني في مصر بتحفيز وضغط من الوكالة اليهودية والهاغاناه؛ 25.784 يهودياً، منهم 21.851 من الذكور و3933 من الإناث. وخدم من الذكور في الأسلحة والخدمات التالية: 4665 في سلاح المشاة؛ 4359 في النقلات؛ 3214 في الوحدات المساندة (Auxiliary Units)؛ 3123 في سلاح الهندسة؛ 2021 في سلاح الطيران؛ 1146 في الخدمات المساندة لسلاح المدفعية (Corps Ordnance)؛ 1009 في البحرية؛ 659 في سلاح المدفعية؛ 3344 في الخدمات الطبية وسلاح الإشارة (Signal Corps).⁽⁸¹⁾ وتلقوا جميعاً التدريب الذي يتلقاه الجندي البريطاني النظامي، وخدم معظمهم فترات تتراوح بين 3 و5 أعوام، وحصل 450 منهم على رتبة ضابط.⁽⁸²⁾

(2) الفرقة اليهودية المسماة "مجموعة لواء" (Jewish Brigade Group)

في سنة 1944، وبفضل جهود وايزمن وعلاقته الحميمة بتشرشل، تألقت قوة خاصة عديدها 6000 جندي يهودي من متطوعي فلسطين لتشكل فرقة (division) صغيرة في الجيش البريطاني سميت "مجموعة لواء"، "مراعاة" لشعور العرب. وكان جميع ضباط الفرقة وقائدها من اليهود، وعلمها العلم الصهيوني. وألحقت بقيادة الفرقة وحدات مساندة من الدبابات والمدفعية وغيرها، كما هي العادة في تأليف الفرق. وأجريت للفرقة دورات تدريبية خاصة، وأُشركت في آخر مراحل الحرب في شمال إيطاليا ضد القوات الألمانية.⁽⁸³⁾

(3) البلماخ

تألقت هذه القوة، على مذهب وينغيت، في سنة 1941 عند ذروة خطر اجتياح رومل لمصر، كي تكون قوة كوماندو قطرية، جاهزة وغير مقيدة بأي موقع خلافاً لسائر قوات الهاغاناه، وقادرة على التحرك على نطاق البلد بأسره.

وحرص الجيش البريطاني على التعاون معها قبل دحر رومل، على الرغم من عدم "شرعيتها"، فأنفق عليها ودربها تدريباً لائقاً بمقاتلة الجيش الألماني. ويخبرنا

David Ben-Gurion, "The Birth of the Jewish Brigade," *Jewish Observer*, January 10, 1964, (81) p. 21.

غير أن زئيف شيف (Schiff, op. cit., p. 22) يقدر عدد يهود فلسطين الذين انخرطوا في الجيش البريطاني، خلال الحرب العالمية الثانية، بـ 32.000 شخص، بينما يقدر آخرون هذا العدد بـ 35.000 شخص. انظر:

Morris Beckman, *The Jewish Brigade* (U.K.: Spellmount, 1998), p. 42.

Schiff, op. cit. (82)

Ben-Gurion, "The Birth...", op. cit.; Beckman, op. cit., p. 74. (83)

قائدها، يغال ألون، أنه على الرغم من قصر فترة التعاون مع الجيش البريطاني فإنه "تحت ستار تدريب بضع مئات ممن 'اعترف بهم الجيش البريطاني تلقى الآلاف تدريباً مشابهاً". وتكوّن البلماخ عند نهاية الحرب من أربع كتائب دائمة التعبئة بإشراف القيادة اليهودية، تتمتع بدرجة عالية من الانضباط والقدرة القتالية والروح المعنوية.⁽⁸⁴⁾

(4) الاحتياط المدرب

من أهم خصائص الجيوش النظامية الفعّالة وجود احتياط مدرب لديها. وبديهي أن يكون قد تشكل لدى الهاغاناه، بانتهاء هذه المرحلة، احتياط عام ضخ يمكنها التعويل عليه عند الحاجة.

إضافة إلى ذلك أنشأ البلماخ نظاماً للخدمة والاستدعاء لأفراده، بعد خدمتهم فيه لسنوات معينة، أصبح النموذج لنظام الاحتياط في الجيش الإسرائيلي لاحقاً، وأمن للبلماخ احتياطاً جاهزاً ومدرباً.⁽⁸⁵⁾

(5) الصناعة العسكرية

اضطر الجيش البريطاني، خلال هذه الفترة، إلى الاعتماد على المصانع اليهودية في فلسطين لتلبية بعض حاجاته. وتعطينا الأرقام الرسمية البريطانية فكرة عن طاقة هذه المصانع فتذكر، مثلاً، أن هذه المصانع قامت، ما بين سنة 1942 وسنة 1944، بإنتاج 3.634.000 لغم مضاد للدبابات، و7.875.000 "وعاء" فولاذي (steel container).⁽⁸⁶⁾ وبلغت القيمة الإجمالية لمنتجات المصانع اليهودية خلال الحرب لحساب الجيش البريطاني 33 مليون جنيه.⁽⁸⁷⁾

وفي تموز/ يوليو 1945، وبتوجيه من بن - غوريون، تعاقدت أطراف يهودية مع دائرة موجودات الحرب (War Assets Administration) الأميركية لشراء مئات الأطنان من آلات الصناعة العسكرية من مخلفات الحرب كخردة؛ فالآلة التي كانت تكلفتها 10.000 دولار، مثلاً، بيعت بـ 125 دولاراً، ووصلت هذه الآلات كلها "سالمة"

Allon, op. cit., pp. 15-18. (84)

Ibid., p. 21. (85)

A Survey..., op. cit., vol. II, p. 1011. (86)

Harry Sacher, *Israel: The Establishment of a State* (New York: British Book Centre, 1952), (87) p. 25.

إلى فلسطين.⁽⁸⁸⁾

(6) ميزانية الهاغاناه

في سنة 1940، بلغت ميزانية الهاغاناه 80.685 جنيهاً، وارتفعت سنة 1945 إلى 486.210 جنيهاً.⁽⁸⁹⁾ وفي سنة 1945، اتفق بن - غوريون مع القيادة الصهيونية الأميركية على تخصيص 7.5 ملايين دولار من التبرعات الأميركية اليهودية، إضافة إلى الميزانية العادية، لتسليح الهاغاناه وللهجرة غير الشرعية.⁽⁹⁰⁾

(7) تنظيم الهاغاناه

تقرر، خلال هذه المرحلة، تنظيم الهاغاناه في قوتين رئيسيتين، إضافة إلى البلماخ:

الأولى: قوة ميدان (حيل ساديه)، من فئة العمر 18 - 25 عاماً، تعمل خارج المستعمرات وضمن الألوية الريفية والمدينية؛

الثانية: قوة حراسة (حيل مشمار)، من فئة العمر 25 عاماً فما فوق، تعمل داخل المستعمرات.

في الوقت نفسه، تقرر إنشاء تنظيم خاص للشبيبة "غاناع" من فئة العمر 16 - 17 عاماً، ليكون المستودع البشري الناشئ لكل من البلماخ وقوة الميدان.⁽⁹¹⁾

(8) الخبرة القتالية والعملائية

ساهمت وحدات صغيرة من البلماخ مع الجيش البريطاني في القتال ضد قوات فيشي سنة 1941، ووراء الخطوط في الصحراء الغربية. واشتبكت الفرقة اليهودية مع القوات الألمانية المتقهقرة في إيطاليا لفترة تزيد على أسبوعين كما ورد سابقاً، ومنيت ببعض الإصابات (83 قتيلًا و200 جريح).⁽⁹²⁾

(88) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1236/61.

(89) المصدر نفسه، ص 1272/106.

(90) نصّ الاتفاق بين بن - غوريون والقيادة اليهودية الأميركية على تخصيص نصف أموال حملة الجباية الأميركية لسنة 1945، لدعم المجتمع المدني اليهودي في فلسطين، والنصف الآخر للإنفاق على التسليح والهجرة غير الشرعية (المصدر نفسه، ص 1234/59). وبلغ مجموع حملة الجباية لسنة 1945 ما مقداره 15 مليون دولار. انظر:

Samuel Halperin, *The Political World of American Zionism* (Detroit: Wayne State University Press, 1961), p. 325.

(91) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1222/42، 1276/112 وما يليها.

(92) Beckman, op. cit., p. 149.

وعوّض عن قلّة المساهمة القتالية التدريب المهني العصري الذي تلقاه الجميع، والخبرة العملائية الواسعة التي اكتسبت في أسلحة الجيش البريطاني المتنوعة، وخصوصاً في إدارة الفرقة اليهودية التي فاق حجمها حجم أي وحدة من وحدات الجيوش العربية النظامية المعاصرة.

(9) دور الهاغاناه الاستيطاني

تم، خلال هذه المرحلة، تمركز كتائب (battalions) البلماخ الأربع في الكيبوتسات بحيث توزعت فصائل (platoons) الكتائب وسراياها (companies)، جنباً إلى جنب، مناطق البلد من جنوبه إلى شماله. وطلب من الجنود العمل في الزراعة في الكيبوتسات أنصاف أيام كل شهر، بينما شمل التدريب العسكري أنصافها الأخرى. وهكذا تم الدمج الكامل بين الاستيطان والتدريب العسكري. وفي سنة 1944، قُسم البلد إلى ست مناطق عسكرية: ثلاث مدينية تضم القدس وحيفا وتل أبيب، وثلاث ريفية (المنطقة الشمالية والمنطقة الوسطى والمنطقة الجنوبية). وضمت كل منطقة ريفية عشرات المستعمرات. وقسمت المناطق إلى أقضية، وكل قضاء إلى مناطق صغيرة. واشتملت المنطقة الصغيرة، في الأغلب، على مستعمرة واحدة. وضمت كل منطقة عسكرية آلاف الأعضاء من قوات الميدان والحراسة والغادناع، وعيّن لكل منطقة قائد. وهكذا انتظمت كل نقطة استيطان في البلد داخل إطار عسكري قطري واحد.⁽⁹³⁾

(10) التخطيط

وُضعت، خلال هذه المرحلة، خطتان استراتيجيتان: الأولى بالتنسيق مع الجيش البريطاني وعُرفت بـ "خطة الكرمل" أو "خطة الشمال" وأيضاً بـ "الخطة أ" (ألف)، وغايتها الاستعداد لغزو ألماني للبلد.

قامت "الخطة أ" على قيم أسطورة "ماسادا"، وعلى فكرة تحصين المنطقة ما بين جبال الكرمل والحدود اللبنانية وتجميع اليبشوف بكامله فيها محمياً بمرتفعات الجليل الغربي لتكوّن رأس جسر من أجل إنزال بريطاني عند استعادة بريطانيا المبادأة. ويقول يغال ألون: "إن مجرد التخطيط لمثل هذه الاستراتيجية أعطى الهاغاناه والبلماخ بعداً جديداً من التخيل والتجربة العسكريين."⁽⁹⁴⁾

(93) انظر: Allon, op. cit., pp. 18-20.

انظر أيضاً: سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 130/1292 وما يليها.

(94) Allon, op. cit., pp. 17-18.

وفي شباط/فبراير 1945، أقرت "الخطة ب" أساساً لاستراتيجية الهاغاناه من أجل قمع أي مقاومة فلسطينية لتنفيذ "برنامج بلمور". وكانت افتراضات "الخطة ب" الأساسية أن حكومة ما بعد الحرب البريطانية، محافظة كانت أو عمالية، ستلغي الكتاب الأبيض لسنة 1939، وأن عرب فلسطين لن يتلقوا أي مساعدة تذكر من الدول العربية، وأن الجيش البريطاني في فلسطين سيتخذ موقفاً ودياً من الهاغاناه، وأن الدولة اليهودية ستقوم خلال فترة قصيرة جداً.⁽⁹⁵⁾

سابعاً: المرحلة السادسة

من استلام حزب العمال الحكم في بريطانيا إلى قرار التقسيم (تموز/يوليو 1945 – تشرين الثاني/نوفمبر 1947)

قدر آخر الإحصاءات الرسمية البريطانية عدد سكان فلسطين في أواخر سنة 1946 بـ 1.912.000 نسمة، وعدد اليهود منهم بـ 608.000 نسمة، أي بنسبة 31.8%.⁽⁹⁶⁾ بينما قدرت إحصاءات الصندوق القومي اليهودي مجمل عدد السكان، في آذار/مارس 1948، بـ 2.011.000 نسمة، وعدد اليهود منهم بـ 660.000 نسمة، أي بنسبة 32.81%. وقدرت إحصاءات الصندوق هذه، أيضاً، مساحة الأراضي التي في حيازة اليهود بعيد قرار التقسيم بـ 1.821.000 دونم من مجموع 27 مليون دونم، أي ما نسبته 6.7% من مساحة فلسطين.⁽⁹⁷⁾

وأنشئ ما بين سنة 1945 وإعلان الدولة العبرية 65 مستعمرة جديدة، فبلغ عدد المستعمرات عشية إعلان الدولة نحو 324 مستعمرة، منها 233 مستعمرة على أراضي الصندوق القومي.⁽⁹⁸⁾

كانت هذه المرحلة هي المرحلة الأخيرة الفاصلة في مصير الانتداب والبلد قبل مرحلة الحسم العسكري التالية.

وتبين للقيادة الصهيونية منذ استلام حزب العمال الحكم في بريطانيا أن لندن، بعكس كل التوقعات، لا تنوي فتح أبواب الهجرة على مصاريعها، أو التخلي عن جوهر

(95) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1253/84. وتيلورت في ذهن بن - غوريون خلال سنة 1941 (أي قبل وصول أخبار الهولوكوست)، بلورة تامة، فكرة إنشاء الدولة اليهودية على عموم أراضي فلسطين فور انتهاء الحرب العالمية، وحتى قبل أن يصبح اليهود الأكثرية في البلد. انظر في هذا الصدد:

David Ben-Gurion, *Jewish Observer*, March 20, 1964, p. 20.

Supplement to Survey..., op. cit., p. 11. (96)

Jewish Settlements in Palestine (Jerusalem: National Fund, March 1948), p. II. (97)

Ibid. (98). وترد فيه قائمة وأوصاف 324 مستعمرة.

سياسة الكتاب الأبيض لسنة 1939.

ووصلت هذه القيادة، بزعامة بن - غوريون، إلى قناعة مبكرة بأن لا مفر من الدخول في مجابهة مع بريطانيا بغرض إجبارها على تعديل سياستها في اتجاه "برنامج بلمتور"، أو التخلي عن الانتداب كلياً. وعكست هذه القناعة اطمئنان القيادة الصهيونية إلى رجحان كفتها، وإلى نمو أداتها العسكرية إلى درجة تمكنها من السيطرة على البلد في حال انسحاب الجيش البريطاني.

وكان "المنشقون" التصحيحيون المتمثلون في منظمي إيتسل (الإرغون) وليحي (شتيرن) قد سبقوا القيادة إلى هذه القناعة، وباشروا منذ سنة 1944 حرباً إرهابية لا هوادة فيها ضد بريطانيا بهدف إخراجها من البلد قسراً. وشكلت "إنجازات" المنشقين في هذا المجال عنصراً ضاعطاً أساسياً على القيادة الصهيونية لتبني النهج ذاته. إلا إن بن - غوريون أدرك خطورة مجابهة عسكرية مكشوفة بين الهاغاناه والجيش البريطاني، وأن معركته مع بريطانيا إن هي إلا معركة سياسية، بينما معركته العسكرية الحقيقية هي مع عرب فلسطين، وربما مع الدول العربية أيضاً. لذلك، وعلى الرغم من تعاون الهاغاناه مع المنشقين في عمليات مشتركة بين تشرين الثاني/نوفمبر 1945 وتموز/يوليو 1946، فقد قرر بن - غوريون الانسحاب من هذا التعاون، وخصوصاً بعد احتلال الجيش البريطاني مقر الوكالة اليهودية (حزيران/يونيو 1946)، ونسف فندق الملك داود (تموز/يوليو 1946). والتزم بن - غوريون، بعد ذلك، استراتيجياً "محدودة" قائمة على تنظيم الهجرة غير الشرعية على نطاق واسع والضغط الدبلوماسي المتواصل عبر الجالية اليهودية الأميركية والبيت الأبيض، مع استغلاله استمرار عمليات المنشقين.⁽⁹⁹⁾

في الوقت نفسه، عدل بن - غوريون برنامجه السياسي وأظهر "تراجعاً" عن "برنامج بلمتور" و"قبولاً" بالتقسيم، الأمر الذي فسح لترومان نفسه مجال تبني التقسيم (تشرين الأول/أكتوبر 1946)، وهو ما أدى إلى إفشال جميع المحاولات البريطانية الدبلوماسية للتوفيق بين المطالب العربية والمطالب الصهيونية، أو للوصول إلى تفاهم ثنائي بين لندن وواشنطن بشأن حل للقضية الفلسطينية.⁽¹⁰⁰⁾

(99) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1324/170:

Allon, op. cit., p. 22.

(100) انظر تفصيلات ذلك في: الخالدي، "خمسون عاماً..."، مصدر سبق ذكره، ص 49 - 61.

على هذه الخلفية، أحالت بريطانيا القضية على هيئة الأمم في شباط/فبراير 1947، وأعلنت عشية قرار التقسيم نيتها الانسحاب من البلد في أيار/مايو 1948. تبلورت الأداة العسكرية، خلال هذه المرحلة، تبلوراً سريعاً في اتجاه تطورها كقوة نظامية قادرة على الحسم نتيجة تراكم ما سبق من إجراءات وتدابير وخبرات.

(1) تشكيل الحرب (Battle Order)

ورد في تقرير اللجنة الإنكليزية - الأميركية (Anglo-American Committee)، الذي صدر في نيسان/أبريل 1946 في ذروة المجابهة بين تحالف الهاغاناه والمنشقين وبين الجيش البريطاني، أنه كان لدى الهاغاناه حينئذ قوات كاملة التنظيم (completely organized) بقيادة مركزية واحدة تخضع لها قيادات إقليمية مؤلفة من ثلاثة أقسام:

أولاً: قوة ثابتة (static) من سكان المستعمرات والمدن عديدها 40.000.
ثانياً: قوة ميدان تدربت على الحركة (mobile operations) تعدادها 16.000.
ثالثاً: قوة دائمة التعبئة (permanently mobilized) يقدر عدد أفرادها عند التعبئة الكاملة بـ 6000.

فيكون بذلك عديد الهاغاناه 62.000 في سنة 1946، يضاف إليها قوات الإرعون (3000 - 5000) وشتيرن (200 - 300)، فيصبح المجموع 65.200 - 67.300.⁽¹⁰¹⁾ وفي بداية تشرين الثاني/نوفمبر 1947، صدر أمر بتنظيم تشكيلين قطريين: (1) الجيش (هحايل) ويشمل البلماخ وقوة الميدان، ومهمته التصدي للأخطار الخارجية؛ (2) الحرس (همشمار) ويضم قوة الحراسة، ومهمته الدفاع تجاه الأخطار المحلية.⁽¹⁰²⁾ وتقرر أن تتألف قوة البلماخ من ثلاثة ألوية تشكل القوة الاستراتيجية الضاربة، وأن تتألف قوة الميدان من ستة ألوية، توزع ثلاثة منها على الريف (لواء غولاني في الشمال، ولواء ألكسندروني في الوسط، ولواء غفعاتي في الجنوب)، وثلاثة على المدن (لواء كرملي في حيفا، ولواء كرياتتي في تل أبيب، ولواء عتسيوني في القدس).⁽¹⁰³⁾

(2) الصناعة العسكرية

(101) Report of the Anglo-American Committee of Enquiry Regarding the Problems of European Jewry and Palestine (London: HMSO, April 1946), pp. 39-41.

(102) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1338/186.

(103) المصدر نفسه، ص 1276/112.

بفضل الآلات التي جلبت من بولندا قبل الحرب العالمية، ومن الولايات المتحدة سنة 1945، أخذت هذه الصناعة تعمل بنشاط متزايد. ففي هذه المرحلة، أنتجت 2 مليون رصاصة للرشيش ستن (Sten)، و4750 رشيشاً، وأكثر من 100 مدفع هاون (Mortar) عيار بوصتين، و53.000 قنبلة يدوية (Mills).⁽¹⁰⁴⁾ وفي 23 تشرين الأول/أكتوبر 1947، صدر أمر إلى الصناعة العسكرية بإنتاج 4000 مدفع هاون، و4 ملايين رصاصة، و130.000 قنبلة يدوية.⁽¹⁰⁵⁾

(3) تطوير هيئة الأركان

في ربيع سنة 1947، أصبح لدى هيئة الأركان جهاز دائم يضم 200 موظف، وتم توزيع المهام بين هيئة الأركان والقيادة القطرية بحيث تولت الأولى المهمات الفنية: العمليات، والتخطيط، والتدريبات، والاتصال، ورسم الخرائط، والتجنيد، وتأليف الوحدات، والتحصينات، وشؤون البلاخ؛ بينما تولت الثانية: الشؤون المالية، والصناعة العسكرية، وشراء الأسلحة، والتخزين، والإعلام، والاستخبارات. وعيّن رئيس فني للأركان إضافة إلى رئيس القيادة العليا.⁽¹⁰⁶⁾

(4) الخبرة العملائية والقتالية

خلال فترة المجابهة العسكرية مع بريطانيا (تشرين الثاني/نوفمبر 1945 – تموز/يوليو 1946) تطلبت عمليات البلاخ دقة متناهية في تحديد الأهداف وتوقيت الحركات تبادياً للصدام مع قوات متفوقة، الأمر الذي اقتضى إحكام التنسيق القطري بين وحدات بحجم الفصيلة والسرية والكتيبة ضمن إطار لوائي. فاكتملت القيادة والوحدات العدة بذلك خبرة غنية أضافتها إلى خبرتها السابقة. وكان أبرز هذه العمليات الهجوم الناجح في آن واحد ليلة 17 – 18 حزيران/يونيو 1946 على 11 جسراً رئيسياً برياً، وعلى سكة الحديد التي تربط فلسطين بالأقطار المجاورة شمالاً وشرقاً وجنوباً. وكانت هذه الجسور جميعاً بحراسة القوات البريطانية، وأدى الهجوم إلى عزل فلسطين فترة عن محيطها العربي، كما أدى إلى احتلال الجيش البريطاني مقر الوكالة اليهودية في القدس!!

واكتسبت قيادة الهاغاناه خبرة عملائية واسعة من خلال إشرافها على الهجرة

(104) المصدر نفسه، ص 1232/55.

(105) المصدر نفسه، ص 1330/178.

(106) المصدر نفسه، ص 1250/81. ويقدر آخرون عدد العاملين في رئاسة الأركان والقيادات المنطقية، في خريف سنة

1947، بـ 400 متفرغ يتلقون الرواتب. انظر: Lorch, op. cit., p. 44.

غير الشرعية طوال السنوات 1945 – 1948، والتي جلبت إلى البلد 100.000 مهاجر غير شرعي على متن 63 سفينة. ومع أن الأسطول البريطاني اعترض 58 سفينة من هذه السفن وساق ركابها إلى الاعتقال في قبرص، إلا أن الخبرة المكتسبة صقلت مهارات قيادة الهاغاناه الإدارية والسوقية صقلاً متيناً. إذ إن عمليات الهجرة اقتضت الاتصال والتنسيق الدائمين بين فلسطين وأوروبا والولايات المتحدة من أجل شراء السفن وتجهيزها؛ تنظيم الجماعات المهاجرة ونقلها إلى موانئ الإقلاع؛ اختيار المسالك البحرية؛ محاولات تفادي دوريات سلاحَي الطيران والبحرية البريطانيين؛ اختيار مواقع الإنزال... إلخ.⁽¹⁰⁷⁾

وإضافة إلى ذلك، كان من النتائج العسكرية للهجرة غير الشرعية نشوء نواة البحرية العبرية حول ربابنتها وبحارتها.⁽¹⁰⁸⁾

(5) الاستيطان العسكري

كان معظم المستعمرات الـ 65، التي أنشئت خلال هذه الفترة، على غرار مستعمرات "السور والبرج". وقد أنشئ 13 مستعمرة منها في النقب لـ "ضمان" إدخاله في الدولة العبرية المتوقعة. وكان معظم سكان هذه المستعمرات من الجنود المسرحين من الجيش البريطاني.⁽¹⁰⁹⁾

(6) التخطيط

في أيار/مايو 1946، أقرت "الخطة ج" (Gimmel) لتحل محل "الخطة ب". وكان هدف الخطة قمع أي مظهر من مظاهر المقاومة الفلسطينية عن طريق ما سمي تدابير مضادة (counter measures) ضد القيادات الفلسطينية السياسية والمهنية والمالية، وضد أهداف مدنية: وسائل النقل، والمطاحن، وخزانات المياه، والمطابع، والنوادي، والمقاهي... إلخ.⁽¹¹⁰⁾

Allon, op. cit., p. 24.(107)

(108) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1320/165.

(109) المصدر نفسه، ص 1210/27.

(110) انظر:

Walid Khalidi, "Plan Dalet Revisited," *Journal of Palestine Studies*, vol. xviii, no. 1 (Autumn 1988), pp. 3-19;

انظر أيضاً نص "الخطة ج" في: Ibid., pp. 20-23.

وعقب ازدياد التوتر مع القوات البريطانية ألحق بالخطة ملحقان في 14 تشرين الأول/أكتوبر و2 كانون الأول/ديسمبر 1946. وقد افترض الأول وقوف الجيش البريطاني موقفاً "حيادياً عدائياً" في حال نشوب القتال بين اليهود والشعب الفلسطيني، بينما افترض الثاني نشوء تعاون بين الجيش البريطاني والشعب الفلسطيني على غرار التعاون بين هذا الجيش واليهود خلال الثورة الفلسطينية الكبرى.⁽¹¹¹⁾

(7) الاطمئنان إلى القوة

في 26 آب/أغسطس 1947، أي قبل صدور قرار التقسيم، أعلن بن - غوريون في اللجنة التنفيذية الصهيونية في زوريخ: "علينا أن نبذل كل الجهود السياسية لإبعاد الحكم البريطاني، بأسرع ما يمكن ومن دون أدنى تحفظ، وألاً نسعى لتجميله وإصلاحه فحسب وإنما لإبعاده فعلاً عن البلد إبعاداً مادياً فلا يبقى له أي أثر أو ذكر في أرض - إسرائيل." وهذا كلام لا يدل على أدنى تخوف من أي مجابهة مع العرب نتيجة انسحاب الجيش البريطاني.⁽¹¹²⁾

ثامناً: المرحلة السابعة

من قرار التقسيم إلى قيام الدولة العبرية (تشرين الثاني/نوفمبر 1947 - 15 أيار/مايو 1948)

كانت هذه المرحلة مرحلة الحسم العسكري ضد عرب فلسطين، "تنفيذاً" لقرار التقسيم وانطلاقاً من تأييد الدولتين الكبيرين له. بلغت "مساحة" الدولة العبرية بموجب قرار التقسيم 15.000.000 دونم، بينما لم تزد المساحة التي في حيازة اليهود الفعلية داخل الدولة العبرية المقترحة على 1.678.000 دونم، أي بنسبة 11.18%.⁽¹¹³⁾ فكان قرار التقسيم في منزلة إعلان للحرب على عرب فلسطين، ودعوة للهاغاناه إلى احتلال 88.82% من "مساحة" الدولة العبرية.

وعقب قرار التقسيم وإعلان بريطانيا نيتها الانسحاب من البلد في أيار/مايو 1948، وضعت الهاغاناه "الخطة د" (Dalet) لتحل محل "الخطة ج" وملحقها. وقامت

(111) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1255/86.

(112) المصدر نفسه، ص 1326/173.

(113) Jewish Settlements..., op. cit., p. II.

"الخطة د" على افتراضين: انسحاب الجيش البريطاني، واحتمال تدخل جيوش عربية بعد نهاية الانتداب.

هدفت "الخطة د" إلى: أولاً، احتلال كامل مساحة الدولة العبرية؛ ثانياً، "الحفاظ" عسكرياً على "النقاط" اليهودية خارج الدولة العبرية، أي القدس بكاملها والطريق المؤدية إليها من الساحل والجليل الساحلي الغربي؛ ثالثاً، احتلال طولكرم وقلقيلية، و"حصار" يافا وعكا والخليل واللد والرملة وبيت لحم وبيت جالا وغيرها، إضافة إلى عشرات القرى داخل الدولة الفلسطينية. وبكلمة، فإنه باستثناء منطقة نابلس - رام الله كان هدف "الخطة د" السيطرة على كامل البلد بتاريخ 15 أيار/مايو، بحجة "استباق" دخول الجيوش العربية بعد 15 أيار/مايو؛ نظرياً، "وافقت" القيادة الصهيونية على التقسيم، لكن عملياً كان هذا من باب ذر الرماد في العين.⁽¹¹⁴⁾

ووضعت ضمن "الخطة د" سلسلة عمليات (operations) متتالية حددت فيها أهداف ومهمات كل كتيبة في كل لواء من ألوية الهاغاناه التسعة (6 ألوية قوة ميدان و3 ألوية بلماخ).⁽¹¹⁵⁾

كان الضابط الأساسي لتنفيذ "الخطة د" موقف الجيش البريطاني. بيد أن أولوية هذا الجيش المطلقة كانت الانسحاب من الجنوب إلى الشمال، إلى ميناء إقلاعه: حيفا، مع أدنى خسارة ممكنة. لذلك لم يكن في صدد التصدي لعمليات الهاغاناه، بل - بالعكس - كانت مصلحته التعاون معها تأميناً لعملية انسحابه ودرءاً لشرهجمات المنشقين المستمرة عليه.

في الوقت نفسه، كانت بريطانيا تعارض قيام دولة فلسطينية بزعامة الحاج أمين الحسيني، وتؤيد ضم بقايا فلسطين العربية (نابلس/رام الله فحسب) إلى شرق الأردن (اتفاق بيغن - أبو الهدى، ربيع سنة 1948)؛ وهي الاستراتيجية ذاتها التي اتبعتها القيادة الصهيونية تجاه عمّان.⁽¹¹⁶⁾

وفي الوقت نفسه أيضاً، أصرت بريطانيا على سيادتها السياسية على فلسطين بأكملها حتى 15 أيار/مايو 1948، مع غيابها العسكري المتدرج من مناطق البلد المتعددة في سياق انسحابها منها، فنجم عن ذلك أمران: ردع تدخل الجيوش العربية قبل 15 أيار/مايو، وبالتالي حماية عمليات الهاغاناه (أي "الخطة د") من تدخل

(114) انظر: Khalidi, "Plan Dalet...", op. cit.;

انظر أيضاً نص "الخطة د" في: Ibid., pp. 24-35.

Ibid., pp. 35-39. (115)

(116) انظر: الخالدي، "خمسون عاماً..."، مصدر سبق ذكره، ص 27 - 36.

الجيش العربية حتى 15 أيار/مايو، الأمر الذي فسح المجال لتنفيذ "الخطة د" في مناطق غياب بريطانيا العسكري مع "حضورها" السياسي فيها، وفق مراحل التعبئة العامة للييشوف.

بدأت التعبئة العامة في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1947: بفئة العمر 17 – 25 عاماً ثم بسائر الفئات تباعاً، حيث بلغ عدد الذين تقدموا إلى الخدمة حتى 15 آذار/مارس 1948: 52.000 رجل وامرأة، ثم 82.500 شخص حتى 15 نيسان/أبريل 1948، ثم 94.500 شخص عشية إعلان الدولة.⁽¹¹⁷⁾

صمد عرب فلسطين، بمساعدة جيش الإنقاذ غير النظامي (نحو 5000 جندي)، لغاية آخر آذار/مارس، وأوقعوا بالعدو خسائر جسيمة، وخصوصاً في حرب المواصلات. وفي الأسبوع الأول من نيسان/أبريل بدئ بتنفيذ "الخطة د"، وتساقت القرى والمدن تحت ضربات الهاغاناه المتلاحقة، وسنحت الفرصة للقيادة الصهيونية كي تحقق حلم "الترانسفير" الذي طالما راودها بحجة الضرورات العسكرية.⁽¹¹⁸⁾

من المستحيل تقويم الأداة العسكرية اليهودية في فراغ من دون مقارنتها بما كان لدى الطرف الفلسطيني، وبالتالي بما كان لدى القوات النظامية العربية بعد 15 أيار/مايو، ومن دون سبر أغوار ضعف المجتمع العربي وهزال قياداته وبلادتها، لكن ليس هنا المجال لذلك.⁽¹¹⁹⁾ على أنه لا بد من الإشارة إلى أوجه استمرار نمو الأداة العسكرية اليهودية خلال هذه المرحلة وعشية بدء الحرب النظامية.

(1) دعم الدولتين العظميين

أكد الرئيس الأميركي هاري ترومان في لقاء بينه وبين حاييم وايزمن في البيت الأبيض بتاريخ 18 آذار/مارس، قبيل بدء تنفيذ "الخطة د"، تأييده لإعلان قيام الدولة العبرية في 15 أيار/مايو، ونيته الاعتراف بها فور إعلانها.⁽¹²⁰⁾ وغضت السلطات الأميركية النظر عن عمليات التجنيد وشراء الأسلحة الواسعة في الولايات المتحدة، بما فيها القلاع الطائرة وأطنان المتفجرات، لمصلحة الهاغاناه.⁽¹²¹⁾

وأوعز ستالين، في ربيع سنة 1948، إلى الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا أن

(117) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1460/330.

(118) انظر الخالدي، "خمسون عاماً..."، مصدر سبق ذكره، ص 97 وما يليها.

(119) المصدر نفسه، ص 11 – 21، 39 وما يليها.

(120) المصدر نفسه، ص 156 وما يليها.

(121) سلوتسكي/خليفة: "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1236/60 وما يليها. وانظر أيضاً: البند (5) أدناه: منظمة ماحل.

يفتح أبواب مصانع سكودا (Skoda) الشهيرة لمشتريات الهاغاناه.⁽¹²²⁾ ويخبرنا بن - غوريون في مذكراته أنه تم التعاقد لغاية 10 أيار/مايو 1948 على المشتريات التالية من مصانع سكودا: 24.500 بندقية؛ 6821 مدفع رشاش (machine gun)؛ 175 مدفع رشاش ثقيل (37 ZB)؛ 57 مليون طلقة؛ 10 طائرات ميسرشميت (Messerschmitt)؛ 20 طائرة نورماند (Normand)؛ وقد تلا هذه الصفقة بسرعة صفقات أخرى من السلاح الثقيل: دبابات ومدافع وسفن حربية.⁽¹²³⁾

(2) ميزانية الحرب

بلغ ما وصل إلى هذه الميزانية من تبرعات الجالية اليهودية في أميركا وحدها 50 مليون دولار، جمعت ما بين كانون الثاني/يناير وأذار/مارس 1948 عن طريق غولدا مئير التي كان بن - غوريون قد أوفدها إلى الولايات المتحدة لهذا الغرض.⁽¹²⁴⁾ وكان مبلغ 50 مليون دولار في ذلك الحين يشكل ضعف ميزانية جيش مصر لعام 1947/1946.⁽¹²⁵⁾

(3) الصناعة العسكرية

أنتجت هذه الصناعة لغاية نهاية أيار/مايو 1948 فيما أنتجت: 10.404 رشيشات؛ 2.115.000 رصاصة رشيش؛ 77.000 قنبلة يدوية؛ 31 مدفع هاون عيار 3 بوصات؛ 130.500 قذيفة؛ 31.994 لغماً؛⁽¹²⁶⁾ 48 مدفع بيات مضاداً للدبابات (PIAT). وصنع خلال الأشهر الأربعة التالية 600 مدفع بيات آخر، وشرع في صناعة مدافع هاون عيار 6 بوصات.⁽¹²⁷⁾

(4) القوة الجوية

تشكلت نواة هذه القوة من 6 طائرات صغيرة جلبت من بولندا قبل الحرب العالمية

(122) انظر: Schiff, op. cit., p. 44.

يؤكد شيف دور ستالين، ويضيف أن بن - غوريون أسر إليه قبل وفاته بأن الأسلحة التي حصلت عليها إسرائيل بهذه الطريقة "هي التي أنقذت الدولة من دون أدنى شك".

David Ben-Gurion, *Israel: A Personal History* (New York: Funk and Wagnalls, 1971), (123) pp. 90-91.

Dominique Lapierre, *A Thousand Suns* (New York: Warner Books, 1997), pp. 176-182. (124)

(125) بحسب قول بن - غوريون، حيث أن قيمة الجنه الاسترليني كانت 5 دولارات حينئذ. انظر:

David Ben-Gurion, *Jewish Observer*, April 9, 1965.

(126) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1521/408.

(127) المصدر نفسه، ص 1522/409.

الثانية،⁽¹²⁸⁾ وتألّفت من المسرحيين الذين خدموا في سلاح الطيران البريطاني خلال الحرب. وفي شباط/فبراير 1948، باع الجيش البريطاني 21 طائرة أوستر (Auster) لـ "شركة" يهودية فلسطينية. ومع أن هذا النوع من الطائرات كان لأغراض الاستطلاع إلاّ إنه قدم خدمات حيوية إلى الهاغاناه قبل تنفيذ "الخطّة د" وخلالها، وخصوصاً في مجال الاتصال بين المستعمرات العدة.⁽¹²⁹⁾ ثم ضمّ إلى هذه الطائرات بسرعة، بعد 15 أيار/مايو، الطائرات التي جلبت من تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة، والتحق بسلاح الجو الجديد متطوعو منظمة ماحل (Mahal) (انظر 5 أدناه).

ويصف بن - غوريون في "يوميات الحرب"، بتاريخ 1 شباط/فبراير 1948، صفقات تمت لشراء 58 طائرة (بما فيها 36 طائرة من نوع موستانغ/ Mustang)، إضافة إلى الطائرات المذكورة في البند (1) أعلاه.⁽¹³⁰⁾ وجدير بالذكر أن سلاح الجو الإسرائيلي شن أول غارة على عاصمة عربية (عمّان) في 1 حزيران/يونيو 1948، تلتها غارة على دمشق في 10 من الشهر نفسه.⁽¹³¹⁾

(5) منظمة ماحل

أنشئت هذه المنظمة بعيد قرار التقسيم بهدف تنظيم المتطوعين العسكريين اليهود من الخارج من ذوي الخبرات الفنية العالية ممن خدم في الجيوش الغربية، وخصوصاً من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وجنوب أفريقيا وفرنسا. وجلب هؤلاء معهم ثروة ضخمة من الخبرة العسكرية الجاهزة، وأدوا أدواراً في غاية الخطورة في تنظيم وتطوير أسلحة الجو والمدفعية والبحر والدروع الناشئة، وخصوصاً بعد 15 أيار/مايو. وبلغ عددهم 3000 متطوع، خلال سنة 1948، عُيّن معظمهم في مراكز ومواقع قيادية وقاتلية حساسة.⁽¹³²⁾

(128) سلوتسكي/خليفة، "من الدفاع إلى النضال"، مصدر سبق ذكره، ص 973/405.

(129) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1530/420.

(130) دافيد بن - غوريون، "يومان هملحماه" (تل أبيب، 1984). وقد ترجمه سمير جبور: "يوميات الحرب، 1947 - 1949" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993). (ستتم الإشارة إلى هذا المصدر وإلى ترجمته، لاحقاً، كما يلي: بن - غوريون/جبور، "يوميات الحرب")، ص 1006/768. ويشير الرقم الأول إلى صفحة الترجمة العربية، بينما يشير الرقم الثاني إلى صفحة الأصل العبري.

(131) "تولدوت ميلحيمت هكوميبيوت" ("تاريخ حرب الاستقلال")، إعداد فرع التاريخ في الأركان العامة (تل أبيب، 1970).

وقد ترجمه أحمد خليفة ضمن كتاب "حرب فلسطين..."، مصدر سبق ذكره، ص 234-233/565.

(132) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1468/339.

(6) منظمة غاحل

تزامن إنشاء هذه المنظمة مع إنشاء منظمة ماحل، وكان هدفها تجنيد الشباب الذين في سن الخدمة العسكرية في معسكرات اللاجئين في أوروبا. وقد بلغ عددهم 22.300، دخل البلد منهم 4700 بين آذار/مارس وحزيران/يونيو 1948. ودخل الباقون بعد حزيران/يونيو، وألحق معظمهم بالوحدات المقاتلة الأمامية بحجة عدم معرفتهم باللغة العبرية.⁽¹³³⁾

(7) البنية السكانية للييشوف

على الرغم من تفوق عرب فلسطين عدداً على الييشوف عشية قرار التقسيم بنسبة 1:2، فإن بنية الييشوف السكانية، بسبب استنادها إلى الهجرة الموجهة، قلّصت الفجوة بينهما من حيث صلاحية فئات الأعمار لدى الطرفين للخدمة العسكرية. فنسبة الأعمار 20 – 44 عاماً عند العرب، مثلاً، كانت 28.5٪، وذلك لكون العامل السكاني العربي الغالب هو ارتفاع نسبة الأولاد، بينما كانت فئة الأعمار 20 – 44 عاماً لدى الييشوف بنسبة 42٪.⁽¹³⁴⁾

(8) احتياط القوة البشرية في قبرص

بلغ عدد المهاجرين غير الشرعيين الذين نظمت الهاغاناه هجرتهم، بين سنة 1945 وسنة 1947، 100.000 مهاجر سيق معظمهم، كما ذكر سابقاً، إلى معسكرات الاعتقال في قبرص حيث بقوا احتياطاً بشرياً جاهزاً إلى أن أخذت السلطات البريطانية تفرج عنهم بعيد 15 أيار/مايو 1948. ويخبرنا بن - غوريون في "يوميات الحرب"، بتاريخ 30 حزيران/يونيو 1948، أن عدد الشباب القادرين على حمل السلاح، من مجموع 25.000 مهاجر ما زالوا في قبرص، كان 14.000، أي أكثر من النصف.⁽¹³⁵⁾

(9) الخدمات الطبية

من أهم خدمات الجيوش العصرية الخدمات الطبية. وقد استندت خدمات الهاغاناه والجيش الإسرائيلي الطبية، لاحقاً، إلى قاعدة واسعة وممتازة تتألف من

(133) المصدر نفسه، ص 1464/335؛ انظر أيضاً:

Hannah Torok-Yablonka, "The Recruitment of Holocaust Survivors During the War of Independence," *Studies in Zionism*, vol. 13, no. 1 (1992), pp. 43-47.

(134) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1459/329.

(135) بن - غوريون/جبور، "يوميات الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 570/441.

تنظيمي "الهداسا" و"كوبات حوليم" في "الهستدروت". ومع ذلك فقد كان الأطباء والطبيبات والممرضات من أوائل من استدعي للخدمة العسكرية، وبلغ من تقدم للخدمة منهم، لغاية شباط/فبراير 1948، 500 طبيب وطبيبة حتى سن الـ 45، و2000 ممرضة من الأعمار كافة.⁽¹³⁶⁾ وبلغ عدد الأسرّة الجاهزة لاستقبال الجرحى، عشية قيام الدولة، 4500 سرير.⁽¹³⁷⁾

(10) سلاح الإشارة

كذلك، لا جيش عصرياً من دون سلاح إشارة متقدم. وبلغ عدد من درّب من اليهود في هذا المجال، خلال هذه المرحلة، 3500 خبير إرسال. كما أنشئ في نيويورك مكتب دائم لشراء معدات الاتصال، وجرى تجميع مئات الأطنان من المعدات الحديثة من مخلفات الجيشين الأميركي والكندي وصلت بأكملها إلى البلد في ربيع سنة 1948.⁽¹³⁸⁾

(11) التحصينات

أنشئ حول كل مستعمرة، خلال الثلاثينات، نظام تحصينات ملائم لنيران رجال الثورة الفلسطينية وتكتيكاتهم، ويقوم، أساساً، على مواقع من الأسمنت المسلح مرتفعة عن الأرض. لكن نظراً إلى احتمال قيام الحرب ضد جيوش نظامية، فقد أجريت تعديلات جذرية في النظام القديم، واعتمد نظام يقوم على الخنادق والقنوات الدفاعية والملاجئ العميقة تحت الأرض والمحاطة بحقول النيران الموجهة وشبكات الألغام والخنادق المضادة للدبابات؛ وهو نظام ثبتت فاعليته ضد القصف المدفعي الثقيل خلال الحرب العالمية الأولى، وكذلك ضد القصف الجوي العاصف في فيتنام. وفعلاً، صمدت هذه المستعمرات، باستثناءات قليلة جداً، ضد الجيوش العربية طوال حرب 1948.⁽¹³⁹⁾

(12) الاستخبارات

كان لدى الهاغاناه، عشية إعلان الدولة، نظام استخبارات يشمل ثلاث شعب: العربية والسياسية والداخلية. وكانت الشعبة العربية تتعامل مع 60 مخبراً عربياً

(136) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1460/330.

(137) المصدر نفسه، ص 1508/392.

(138) المصدر نفسه، ص 1266/99.

(139) المصدر نفسه، ص 1410/271.

وتستعين بوحدة "المستعربين" الخاصة التابعة لقوة البلماخ.⁽¹⁴⁰⁾ وكانت التقارير عن المحادثات الهاتفية بين القادة الفلسطينيين تصل إلى بن - غوريون بانتظام.⁽¹⁴¹⁾

(13) البنية الاجتماعية

ساهمت البنية الاجتماعية في الريف اليهودي مساهمة أساسية في تعبئة سكانه وتيسير استجابتهم لطلبات السلطات المركزية وأوامرها، حيث أن من مجموع 324 مستعمرة في البلد عشية قيام الدولة كانت 239 مستعمرة، أي بنسبة 73.76٪، إماماً جماعية (176 كيبوتساً)، وإماماً تعاونية (63 موشافيم).⁽¹⁴²⁾

(14) مزايا الوضع الدفاعي

إن وضع إسرائيل "الدفاعي" تجاه الجيوش العربية أكسبها المزايا التي تتلزم، عادة، مع هذا الوضع في الحروب وأهمها: معرفة ميدان القتال؛ الاستفادة من خطوط المواصلات الداخلية؛ قصر خطوط الإمداد النسبي وجعل الحسم ضدها منوطاً بتفوق العدو بنسبة 1:3 لاختراق خطوط الدفاع.

(15) تشكيل الحرب

تألف جيش الميدان، في 15 أيار/مايو 1948، من 30.574 مقاتلاً نظموا في عشرة ألوية، ثلاثة منها ألوية بلماخ.⁽¹⁴³⁾ وارتفع ملاك هذا الجيش بسرعة، بفضل العوامل المذكورة أعلاه، إلى 40.825 (6 حزيران/يونيو 1948)، وإلى 74.450 (12 آب/أغسطس 1948)، ثم إلى 88.033 (19 تشرين الأول/أكتوبر 1948)، وإلى 97.757 (5 شباط/فبراير 1949).⁽¹⁴⁴⁾

* * *

من المستحيل، كما قلنا، تقويم الأداة العسكرية اليهودية في فراغ من دون مقارنتها بقوانا ومواطن ضعفنا، فلسطينياً وعربياً، كي تكتمل الصورة. لذلك يبقى ما قيل أعلاه جزءاً من كل ليس إلاً.

* * *

(140) المصدر نفسه، ص 1261/93.

(141) بن - غوريون/جبور، "يوميات الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 283/219، 298/227.

(142) سلوتسكي/خليفة، "من النضال إلى الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1209/25.

(143) Ben-Gurion, *Israel: Personal...*, op. cit., p. 93.

(144) بن غوريون/جبور، "يوميات الحرب"، مصدر سبق ذكره، ص 1017/780 - 1018/782.

نختتم هذه الدراسة بما دوّنه بن - غوريون في "يوميات الحرب" بتاريخ 24 أيار/مايو 1948، أي قبل مرور أقل من عشرة أيام على بدء القتال مع الجيوش العربية، وبعد أن تلقى خبراً بوصول 45 مدفعاً من المدافع التي أوصى عليها سابقاً. قال بن - غوريون:

"ينبغي تكليف يغال [ألون] ضرب [جيش] سورية من الشرق والشمال. ينبغي أن يقوم سلاحنا الجوي بقصف عمّان وتدميرها.

"إن الحلقة الضعيفة في التحالف العربي هي لبنان. إذ إن سلطة المسلمين مصطنعة، ومن السهل تقويضها. يجب إقامة دولة مسيحية يكون نهر الليطاني حدها الجنوبي. سنعقد حلفاً معها. عندما نحطم قوة الفيلق [أي الجيش العربي الأردني] ونقصف عمّان، سنقضي أيضاً على [قوة] شرق الأردن، وعندها تسقط سورية. وإذا تجرأت مصر على مواصلة القتال - سنقصف بورسعيد، والإسكندرية، والقاهرة.

"وهكذا سننهي الحرب - وسننهي حساب أجدادنا مع مصر ومع آشور وآرام."⁽¹⁴⁵⁾

(145)المصدر نفسه، ص 359 - 454/360.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>